بين نارين

حرب تلد حربًا

في ليلة شتوية باردة حالكة السواد؛ اندلعت حرب الخليج الثانية في كانون الثاني عام ١٩٩١م، إثر ضربات جوية وصاروخية مكثفة على أهداف منتخبة في بغداد وباقي مدن العراق، وذلك بعد انتهاء المهلة التي حددتها الأمم المتحدة للرئيس العراقي صدام حسين للانسحاب من الكويت، والتي لم يستجب لها، وكذلك إثر انتهاء المهلة التي أعطاها الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب لصدام بالانسحاب الكامل من الكويت للحيلولة دون المضي في اتجاه الحرب وتجنيب العراق ويلاتها، هذه المُهلة قد ضربها صدام بعرض الحائط أيضًا.

كان الأمريكيون يتعقبون الرئيس صدام بواسطة وسائلهم الإلكترونية الجوية والفضائية الحديثة، وفي لحظة اعتقدوا أنه قد يتواجد في أحد قصوره، ولذلك بدأوا هجومهم السريع والصادم عليه والذي أسموه (هجوم الفرصة) ونجا صدام من هذا الهجوم.

لقد قررت القيادة العسكرية الأمريكية استخدام مبدأ (الصدمة والترويع) في عملياتهم ضد الجيش العراقي، بغية تحقيق أهدافهم بسرعة كبيرة بأقل خسائر ممكنة في قواتهم، مع التركيز على إلحاق أكبر الخسائر الممكنة في قطاعات الجيش العراقي وتقليص قدراته العسكرية إلى أقل ما يمكن، كي يضعوا حدًا لمستوى تهديده للبلدان المجاورة.

وهكذا أصبحت سماء بغداد كأنها مرأب كبير موارب ومباح بالكامل لجميع أنواع طائرات قوات التحالف المشاركة في الحرب، التي استهدفت المئات من المراكز العسكرية والمدنية ذات التأثير المباشر، سواء على العمليات العسكرية

الجارية أو حتى التي تؤثر مباشرة على حياة الناس بصواريخ ذكية بعيدة المدى؛ مثل كروز وتوما هوك.

العراق كله أصبح مركز للعمليات تسرح فيه وتمرح كافة الجيوش التي زحفت من كل بقاع العالم المتحضر وحتى غير المتحضر، كان معمل تصليح المحركات النفاثة الجوية، وضمن جميع القواعد الصناعية العسكرية في معسكر التاجي الذي يقع شمال بغداد قد تعرض إلى قصف جوي شديد، قبيل الحرب صدرت لنا أوامر عسكرية تقضي بإخلاء أكثر ما يمكن من المعدات والأجهزة والمواد الاحتياطية إلى مدارس طلاب مدنية تقع وسط الأحياء الشعبية في بغداد، وكانت حصة معملنا مدرستين أحدهما في جانب الرصافة والأخرى في جانب الكرخ، في ضاحية العامرية التي تقع على مقربة من مكان سكني في ضاحية الغزالية المخصصة لضباط الجيش العراقي.

صباح يوم بدأ القصف الجوي التحقت أسوة بزملاء العمل إلى مدرسة العامرية، لم أكن وكذلك زملائي الضباط والمراتب نفعل شيء مُهمًا سوى الحديث عن أمور الحرب والدمار والقصف، وكذلك التسكع في شارع العامرية الرئيسي، وارتياد المقهى المقابل للمدرسة لشرب الشاي والقهوة ومراقبة الطائرات والصواريخ وهي تجوب سماء بغداد بحرية دون رادع أو مقاومة تذكر.

حضر قائد المعمل العميد المهندس بشير عبد الواحد إلى مدرسة العامرية، وعلى فوره اجتمع بجميع ضباط المعمل مُصدرًا لنا أوامره بضرورة التحاق جميع العاملين ضباط ومراتب صباح اليوم التالي إلى المعمل في التاجي لغرض إخلاء أكبر ما يمكن من المعدات، وكذلك إنقاذ ما يمكن إنقاذه من المواد الاحتياطية والأجهزة ونقلها إلى المدارس التي هي أكثر أمنًا، صباح اليوم التالي كان شتويًا باردًا والشمس في أوجها لم تبخل على أبنائها من بني البشر بدفئها وضيائها الرائعين رغم ما يحصل لهم من قتل ومصائب وكوارث في كل لحظة وكل دقيقة.

صباح اليوم التالي دخل الضباط والمراتب إلى معمل تصليح المحركات وهالهم ما رأوا من دمار هائل وخراب شامل، المشهد خارج حدود تصور أو تقبل العقل البشري، دهشوا صدموا في أعماقهم، انعقدت ألسنتهم، أصيبوا بخيبة أمل كبيرة لاسيما وأن المعمل ازدهر كثيرًا ووصل إلى مستوى أقرب إلى الكمال في عمله وتنظيمه وإنتاجه.

لقد كان الدمار غير معقول ولا يقره أي منطق، راعهم ما شاهدوا، الطرق مغلقة تمامًا بسبب الحفر العملاقة التي أحدثها القصف الجوي العنيف، رائحة الانصهار تنبعث من كل مكان، أكوام من التراب المنزوع المُرمى من تلك الحفر يغطي المنطقة بأكملها ويغلف الجدران التي استطاعت الصمود، صفائح أغطية سطوح المباني تستقر على أشكال هندسية مختلفة، طابوق يتلوى يصرخ من شدة الحرارة التي تعرض لها لحظة القصف، جدران تبكي تندب حظها العاثر بسبب فتحات كبيرة نتجت عن اختراق الصواريخ، جدران أخرى مائلة تنتظر دورها في الانهيار، أطنان من الطين الرطب متناثرة صبغت المكان بأكمله باللون الترابي الكثيف، وغطت الجدران التي أصبحت أطلال...

منشآت المعمل الصناعية جميعها تعرضت للقصف المركز الثقيل، المعدات والأجهزة مُبعثرة على مساحات شاسعة بشكل عشوائي، جناح التصليح العام الذي كنت أقوده تمَّ قصفه بعدة صواريخ غادرة أجهزت عليه وعلى كل ما في داخله، وأبقت على بعض من جدران هيكله ومعداته بانتظار موجة القصف اللاحقة، جناح تصليح المعدات الكهربائية تمَّ استهدافه بعدد من صواريخ الحقد، أحالت معظم أقسامه إلى حطام وأنقاض، كما حصل جناح الإنتاج على نصيبه الوافي من هذه المجزرة العلمية وأصيب في عدة أجزاء من جوانبه، لم تسلم كذلك مباني الخدمات اللوجستية للمعمل مثل بهو الضباط والمراتب والمستودعات وغيرها، الفوضى والخراب يعمان المكان بأكمله وكأن السماء قد أنزلت كل غضبها في لحظة واحدة وأحدثت هذا الدمار المجنون.

المعركة مستمرة والهجوم الجوي لطائرات الحلفاء على أوجه يتطور ويتوسع في كل لحظة، الطائرات القاصفة الذاهبة إلى أهدافها أفواجًا نراها تحلق في السماء على ارتفاعات متوسطة بحرية كاملة ونكاد نستطيع حساب عددها، طائرات الاستطلاع الإلكتروني الجوي تحلق على ارتفاعات أعلى لا نكاد نراها، لكن دوي محركاتها يصل مسامعنا، تترصد حركات سلاح الجو العراقي ودفاعاته الجوية وتراقب كل ما تقوم به القِطع العسكرية العراقية، وتبثها إلى مراكز قيادتها في قاعدة السيلية في قطر، التي تصدر أوامرها إلى أفواج طائراتها المقاتلة لإسقاط أية طائرة عراقية تتجرأ على الانطلاق لسمائها العراقية.

يتجول العميد قائد المعمل الذي اصطحب ابنه الصغير بصحبة ضباطه في أرجاء المعمل، وسط ذهول وأسف واضحين، ثم يتوقف في المنطقة المحصورة بين مقر المعمل ومقر جناح التصليح العام وعلى حافة حفرة عملاقة ظهرت كأنها مخروط هائل مقلوب تكونت أسفله بحيرة ماء تغطيها طبقة كثيفة ولزجة من الطين المخضر، الجميع صامت يحبس أنفاسه ويتوقع الأسوأ، أصوات الطائرات الأمريكية في السماء ترتفع تارة مقتربة وتنخفض تارة أخرى، الألم والأسى يُخيم على نفوس الجميع، في حضرة هذا الجحيم الضباط يتهامسون فيما بينهم غير قادرين على تصديق ما ترى عيونهم، يخرج كلامهم دون صوت، طائرات العدو لا تكل من التجوال في سماء بغداد، يتهامس الجميع بهدوء وحذر كأنهم يخافون أن تسمعهم الطائرات التي فوق رؤوسهم فتطلق عليهم إحدى صواريخها، فتحدث قربهم حفرة كبيرة أخرى تكون مثواهم الأخير.

قبل إنشاء هذا المعمل؛ كان العراق يرسل المحركات المعطوبة للطائرات الروسية الصنع من طراز ميك وسوخوي إلى الاتحاد السوفيتي لغرض تصليحها، بعد انتهاء ساعات عملها المُحددة، أو إثر إصابتها بأضرار أو تلف

خارجي، وهذه العملية كانت تأخذ وقتًا طويلاً وتحد من قدرة ومرونة سلاح الجو العراقي على إصلاح طائراته ورفع صلاحية الطائرات إلى أقصاها، خصوصًا في زمن الحرب حيث أعطال وأضرار المحركات على أوجه.

العميد بشير يقف على حافة الحفرة يتمعن النظر نحو أسفلها، ترد على خاطره أفكار عديدة لم يستطع كبحها، كنت أقف في الجهة الأخرى من الحفرة، يحاول التعبير عن صدمته الكبيرة وأسفه الأكبر لخسارة هذا الصرح الصناعي المتقدم والفريد، وفي معرض حديثه عن وصف الخراب الكبير الحاصل يصرح أن الأموال التي صُرفت على التصنيع العسكري كان بها يمكن تبليط جميع شوارع العراق من زاخو حتى الفاو بالمرمر الإيطالي الفاخر، وعاد وقال إن هذا ما تناقلته إحدى الإذاعات العالمية، لم يعلق أحد على ما أدلى به العميد، ثم أصدر أمر لجميع الضباط بضرورة التواجد في مقر المعمل في الساعة الثانية عشر، لغرض الاجتماع وتنسيق الأعمال.

انتهى الموضوع دون أية إثارة، ومضى الجميع كل إلى مكان عمله، بعدها اصطحبني القائد وكان من طبعه أن يمسك بيد مرافقه أثناء حديثه، وكرر على مسمعي نفس ما قال من حديث حول هدر أموال التصنيع العسكري، لم أعلق أو أضيف شيء عليه واكتفيت بالإنصات.

الجو منعش ورائع والشمس دافئة بحنان لكن صور أشلاء المعدات وركام البناء لا يُعطي إطلاقًا للمرء شعور بالانتعاش، بل يمنحه إحساس بقرب نهاية العالم، أصوات الطائرات تدنو وتبتعد.

حضر الجميع إلى مكتب القائد اتخذوا مجالسهم على أطراف كراسيهم، بعصبية واضحة أصابعهم تمسك بأقلام وقصاصات صغيرة من الورق، بدأ الاجتماع الجميع صاروا يدلون بما لديهم ويناقشون خطة الإخلاء المستقبلية بينما القائد يصدر التوصيات النهائية حول ضرورة الإسراع في إنقاذ كل المعدات والمواد الاحتياطية الممكنة وإخلاءها من المعمل تحسبًا من موجة قصف لاحقة، طرق

العميد المهندس (ع. أ) باب المكتب، اعتذر واستأذن القائد بالجلوس فقد وصل كعادته متأخرًا للاجتماع.

صوت الطائرات يقترب، الاجتماع متواصل والأوامر ترد تباعًا، أيدي الضباط تنقش أوامر القائد على كلمات مبعثرة على قصاصات ورق صغيرة، أخذ العميد (ع.أ) بالتحدث عن أمور جناح الإنتاج الذي يقوده والاقتراح حول صعوبة إخلاء بعض المعدات الكبيرة بينما أصوات الطائرات تقترب وترتفع أكثر فأكثر، الجميع في حذر شديد، أحد الضباط قال للقائد إن الطائرات قد أصبحت فوق رؤوسنا، لم يعر القائد أي اهتمام لذلك واستمر في مناقشة خطة الإخلاء، وفجأة ارتفع مبنى مقر المعمل بأكمله بعنف وسقط من علوه على الأرض.

أصوات القنابل والصواريخ تخرق الأذان، الأرض تهتز بعنف تحتنا، أزيز الأجزاء المحطمة تمر بسرعة هائلة، أصوات ارتطام القنابل بالأرض تزداد أكثر فأكثر وتقترب، الكل في رعب حقيقي شديد كأن أبواب جهنم قد فتحت علينا مرة واحدة، طائرات التحالف الدولي تقصف معمل تصليح الدبابات الشرقية الملاصق لمعملنا، الخوف يتسيد الموقف، عيون الضباط وحدقاتها متوسعة إلى أقصاها وشاخصة نحو القائد تنتظر، الكل يحاول أن يستند على كرسيه ولا ينجح، الفوضى عارمة، الجميع يترقب كلمة واحدة تصدر من فم القائد، يجلس القائد على عرشه الوثير بهدوء ويترقب...

الانفجارات تتزايد وتقترب وكأن الشيطان انتفض غاضبًا، هدير الطائرات القريبة يزداد ويعلو وفجأة أصدر القائد أمر بالتوجه نحو ملاجئ حماية الأشخاص التي كانت قد هُيأت قبل الحرب، كالسهام هرع الجميع يسابقون الريح وصوت الانفجارات نحو باب المقر، الكل في حالة هلع وذعر وفزع، البعض ركض بعيدًا عن المقر كي يستقر في مكان أمين، البعض الآخر استقر في قعر الملجأ الشقي القريب...

الرائد المهندس (أ.ع) بعد أن كان مع ابن القائد (سلوان) يتجول في المعمل؛ يقف الآن مُمسك بيد الصغير في باب المقر، مذهولين لا يعرفوا ما الذي يجري وماذا عليهم أن يفعلوا، العيون تتجه نحو السماء التي تُلقي علينا حممها بردًا وسلامًا كما كان الرئيس صدام حسين يقول في خطبه، الأفواه تدعو السلامة من الله، استقريت في جوف الملجأ القريب وعيني تتجه نحو السماء متضرعة للحي العظيم أن يُنجينا من هذه المحنة، الطائرات المُغيرة برشاقة تواصل حركاتها البهلوانية الشيطانية وهي ترش الموت على المكان، أشعة الشمس تسقط على عيوني فتغلق حدقاتها رغمًا عني فيبدو الكون أسود متموج يطغي عليه اللون الأحمر، أنكسُ رأسي للأسفل...

أصوات القصف تتعالى وتستمر، كل شيء يدور عكس الزمن، القصف على أشده، أرفع بصري لأرى القائد قد أخذ مكانه في الملجأ، أسأله عن ابنه ولا جواب إذ أنه اعتقد أن ابنه في أمان مع الرائد (أ.ع)، هدير الطائرات يصم الأذان والجميع في صراع مرير مع الموت، أرى ابن القائد يقف مشدوه مصدوم شديد الحيرة... يقفز القائد دون أن يعلم بمكان ابنه من ملجأه كي يجدهُ وينقذهُ، أقفزُ سريعًا نحو باب المقر لأمسك بيد الصغير أتلقفه وأدفعه أمامي بقوة نحو الملجأ الشقي، هبط القائد أيضًا في ذات الملجأ، سلمت له ابنه مُعافى وألقيت بنفسي في إحدى زوايا الملجأ، بنوع من العتاب اللا إرادي قلت للقائد:

– لماذا أتيت بهذا الصغير إلى هنا يا سيدي؟

مرت دقائق طوال كأنها دهورًا من الزمن، توقف القصف هدأت الدنيا، لم نعد نسمع أية أصوات قصف أو انفجارات، يبدو أن حمولة الطائرات قد نفذت، الحمدُ لله، وهنا قال القائد أبلغوا الجميع مغادرة المعمل قبل أن تعود الطائرات لقصفنا من جديد... لم تمسك الأرض أقدام أحد، كرياضيين في مهرجان ركض عالمي أخذت الجموع البشرية تَجري بسرعة ونشاط غير مسبوق نحو باب المعمل الرئيسي، استقلوا سياراتهم المدنية والعسكرية وكل شيء متحرك ونهبوا الأرض فرارًا.

لا أستطيع نسيان هذه اللحظات العصيبة ما حييت، ولا تختفي عني نظرات الطفل التائه وهو يقف مذهولاً في لُجَّة الحرب والقصف في موقع عسكري لم يكن هناك أي مُبرر لتواجده فيه.

بعد إنشاء معمل تصليح المحركات هذه القاعدة الصناعية المتقدمة؛ استطاعت القوة الجوية العراقية أن تجري جميع أعمال الصيانة والتصليح العام لمحركات الطائرات بكفاءة الكادر العراقي، دون الحاجة إلى إرسال هذه المحركات إلى الاتحاد السوفيتي، في معملنا أصبحت كلفة تصليح المحرك النفاث الواحد أربعة عشر ألف دولار أمريكي، والتي تتم في مدة لا تزيد على أسبوع، بينما كانت تصل سابقًا إلى حدود مليون دولار أمريكي، وتتطلب العملية فترة أكثر من سنة تقريبًا.

إن عدم الاعتماد على الجانب السوفيتي زاد من مرونة وكفاءة عمل القوة الجوية، وبالنتيجة أدَّى هذا إلى ارتفاع الصلاحية القتالية للطائرات، وازدياد زخم العمليات الجوية أثناء الحرب مع إيران، مما جعل العراق يمتلك السيادة الجوية المطلقة على سماء المعركة، مضت أيام عديدة وطائرات التحالف العالمي تهيمن على سماء العراق، تصول وتجول مُلقية آلاف الأطنان من القنابل على كل ما يمت بصلة للمجهود الحربي للجيش العراقي، وكذلك لم تسلم جميع البنى التحتية التي تقدم خدماتها للمواطن العراقي العادي، باختصار لقد استهدفوا كل شيء.

في إحدى ليالي بغداد الشتوية الباردة حيث الظلام يُغلف الكون والخوف يسود على الأجواء، التوجس والقلق يعمان النفوس ويطغيان على المكان، كنت وعائلتي نتخذ إحدى زوايا بيتنا لاعتقادنا أنه أفضل ملجأ للحماية من القصف المحتمل، نتنقل داخل البيت بابنتنا المولدة حديثًا ونحرص أشد الحرص على

وضعها في مكان أكثر أمناً، نجلس نحتضن المدفأة النفطية نوع (علاء الدين)[1] بحنان بالغ كي نستمد منها الدفء والسكينة ولا ندع شعاع دفء واحد يهرب سدى، رغبتنا شديدة في استغلال طاقة المدفأة بأقصى حدودها، لذا كُنا نضع فوق سطحها العلوي بعض أقراص من حبات البطاطا ونشويها لنحصل على طعام مجاني سريع تشبهًا بمطاعم الماكدونالدز الأمريكية التي تقدم البطاطا المقلية.

الطاقة الكهربائية لا تزال معطلة والجميع يعيش في ظلام دامس، إلا أنني كنت قد ابتكرت وسيلة إنارة نستخدمها في لياليا الحالكة الكئيبة، وهي عبارة عن سلك كهربائي أوصلته بين بطارية سيارتي وأحد المصابيح الاحتياطية الخاص بالسيارات نستخدمه عندما نشعر ببعض الأمان، إثر زوال موجة قصف بانتظار موجة لاحقة، أو عند حاجتنا الماسة لقضاء إحدى الأمور المهمة، بعدها أقوم بإعادة شحن بطارية السيارة وهكذا...

فجأة يقفز بيتنا من أساسه إلى السماء ويهبط من علوه دون رغبة، كلحظة حدوث الزلزال اهتزت أرضية البيت عدة مرات، جدران بيتنا أخذت تتماوج بعنف، صوت قصف شديد يخرم أذاننا، احتضنت زوجتي ابنتنا الوليدة بينما أخذت ابني وابنتي الأخرى تحت جناحيَّ، لقد كانا انفجارين هائلين متتالين، لم نعرف ماهيتهما ولكننا حزرنا شيئًا واحدًا؛ وهو أنهما كانا قريبين جدًا، ثم سكنت الدنيا وتوقف بيتنا عن الاهتزاز واستقرت أرضيته بعد عناء.

في اليوم الثاني علمنا أن طائرات أمريكية من نوع الشبح قد أطلقت قنبلتين ذكيتين اخترقتا فتحة تهوية أحد الملاجئ الكونكريتية في منطقة العامرية، مُحيلة أجساد المئات من العراقيين المدنيين المجتمعين فيه إلى بخار وسخام، رأيتُ

:- مدفأة علاء الدين: اسم نوع من أنواع التدفئة النفطية، وهي شائعة لدى العراقيين يستخدموها بكثرة أيام الشتاء للتدفئة وكذلك أيضًا لأغراض طبخ الطعام.

ذلك بأُمِّ عيني... هؤلاء الناس كان معظمهم أطفال نساء وشيوخ، وكانوا قد قدموا من بيوتهم مع أفرشتهم ومأكولاتهم وألعاب أطفالهم مُعتقدين أن هذا الملجأ يحميهم من القصف الجوي للطائرات.

اعتقد الامريكان أن هذا الملجأ تستخدمه القيادة العراقية كمركز عمليات حين ظنوا أن الرئيس العراقي صدام حسين كان يتواجد فيه، لذا أطلقت طائرة حربية أمريكية قذائفها الذكية الموجهة بالليزر وأحالت الدنيا داخل الملجأ إلى جحيم أسود وبقايا عِظام.

في الثاني والعشرين من شباط عام ١٩٩١م؛ وافق العراق على مقترح سوفيتي بوقف إطلاق النار والانسحاب من الكويت، إلا أن أمريكا لم تقبل بهذا المقترح وأعطت القوات العراقية مهلة ٢٤ ساعة فقط لإكمال انسحابها من الكويت.

بعد ٤٣ يوم من الحملة الجوية المكثفة للحلفاء؛ بنهاراتها ولياليها الطويلة، حيث قامت طائراتهم بحوالي ١٠٩٨٦٧ غارة جوية، ألقوا خلالها ٦٠٦٢٤ طن من القنابل المختلفة على أرض العراق، على إثرها بدأت الحرب البرية حين توغلت قوات الحلفاء البرية نحو الكويت والعراق واستمرت باندفاعها حتى وصلت إلى مناطق جنوب بغداد، حينها صدرت الأوامر لها بالتوقف.

أشعل الجيش العراقي النار في آبار النفط الكويتية التي أدَّت إلى إحداث كارثة بيئية كبيرة عمَّ تأثيرها جميع بلدان الإقليم والكثير من بلدان العالم.

يوم السابع والعشرون من شباط ١٩٩١ أعلن الرئيس الأمريكي بوش انتهاء العمليات العسكرية وتحرير دولة الكويت، إثر هزيمة الجيش العراقي واستسلامه في معاهدة (خيمة صفوان).

انتهت صفحة الحرب الخارجية وبدأت حرب جديدة داخلية، إذ اندلعت شرارة انتفاضة شعبية واسعة شملت الكثير من محافظات العراق الجنوبية والشمالية، والتي تمَّ قمعها بقسوة لا مثيل لها من قبل ما تبقى من قوات الحرس الجمهوري الموالية للرئيس صدام حسين.

انتهت الحرب وبدأت نتائجها السلبية الكبيرة بالتأثير على حياة العراقيين الاقتصادية والصحية والاجتماعية، كما أن الخدمات قد تردت بشكل كبير إثر الدمار الهائل الذي لحق بالبنى التحتية، مثل مراكز إنتاج الطاقة الكهربائية، ومنشآت النفط ومحطات تصفية مياه الشرب وغيرها.

لا بد من الإشارة إلى أن سلطة الدولة والحكومة قد ضعفت كثيرًا، لذلك أصبحت تخوض بقسوة بالغة عملية الحفاظ على بقائها واستمرارها بأي ثمن، وهذا ما سنأتي عليه لاحقًا، لقد خسر النظام ثقة الشعب بعد أن فقد مصداقيته وانحسرت شعاراته الرنانة.

أشهر مضت على انتهاء الحرب والشعب العراقي يلعق جراحه ويحاول تطبيب ما أصابه من أهوال الحروب التي تعاقبت عليه، أما الجيش العراقي فقد عمل ضمن ما يسمى (حملة إعادة الإعمار) إلى تصليح الأسلحة والمعدات المتبقية، وبناء المنشآت المتضررة وإعادتها إلى الخدمة.

نظرًا للدمار الهائل الذي لحق بمعمل تصليح المحركات النفاثة الجوية وبعد أن أيقنت القيادة بعدم وجود جدوى اقتصادية من عملية إعادة إعماره، لذا قررت قيادة القوة الجوية العراقية تسقيط المعمل رسميًا وإهمال هذا المشروع الحيوي الصناعي الفريد في الشرق المتوسط، اجتمع قائد المعمل مع قادة أجنحته وتداولوا قرار القيادة، وبعد المناقشات المستفيضة قرروا المضي قدمًا في إعادة تأهيله، وهنا بدأت جهود قائد المعمل الكبيرة والتي أثمرت عن نتائج باهرة، إذ استطاع وبطريقته الفريدة أن يُقنع المسؤولين في قيادة القوة الجوية بقدرة منتسبي المعمل على إعادة العمل به والمضي قدمًا في تصليح المحركات إذا ما تمَّ إعادة بناء أبنية المعمل المتضررة.

وبالفعل قامت منشأة الفاو بردم الحفر العملاقة ورصف الطرق المدمرة وترميم جميع أبنية المعمل، بينما هبَّ منتسبو المعمل من ضباط ومراتب بتجميع الأجهزة والمعدات والعدد الصالحة التي سلمت من القصف الجوي وأضافوا لها

المواد التي كانت قد أخليت إلى المدارس، لقد عمل الجميع كخلية نحل يتسابقون ويسابقون الزمن كي يجعلوا من المستحيل ممكن.

كنت أنا أول من أعلن عن جاهزية جناح التصليح العام وإمكانيته استقبال المحركات المتضررة، والبدء في عمليات التصليح العام عليها كما كان سابقًا قبيل الحرب، من خلال إقامة حفل رسمي بمناسبة هذا الإعلان، وبذلك كنا قد تحدينا أنفسنا والزمن والعدوان وأعدنا قدراتنا الصناعية والتكنولوجية إلى وضعها الأول.

بينما كان العراقيون الوطنيون الغيارى على بلدهم وشعبهم وجيشهم يعملون بين أنقاض الصخور المنصهرة، وأكوام الحديد الملتوية، والتراب الذي يغلق الأنوف، والطين الثقيل في أجواء الصيف اللاهبة؛ كانت بعض العقارب تُهيء سمومها مُحاولة الانقضاض على أية فريسة اعتقدوا أنها سهلة المنال، حيث كان هدفهم الرئيسي هو قائد المعمل العميد المهندس بشير عبد الواحد، وهدفهما الثاني هو أنا العقيد المهندس عباس الزهيري، وكانت خطتهم تقضي بضرب عصفورين بحجر واحد، لا يحتاج المرء ذكاء خارق كي يكتشف النوايا التي يخفيها بعض البشر الذين يضمرون الحقد والكراهية لكل ما هو مُختلف عنهم، سواء كان في الدين أو المبدأ.

ونعود لمسألة ضعف الحكومة العراقية بعيد الحرب وتأثيره على هذا الموضوع، إذ أن ضعف سلطة الدولة أحدث انحراف واضح عن الخط الذي كانت تنهجه السلطات في سريان القانون المدني وكذلك في حماية الأقليات الدينية، إلا أن هذا أصبح ليس من ضمن أولويات الحكومة والسلطة، حين ظهرت حالات غير صحية كانت قد انتهت منذ زمن بعيد، مثل عودة موضوع حل الخلافات العامة عن طريق الطرق العشائرية القديمة، بعيدًا عن قوانين ومحاكم الدولة، وكذلك ارتفاع المد الديني المُعادي لوجود الأقليات الدينية، ومعاداتها علنًا، حتى أخذنا نسمع أصوات مكبرات بعض الجوامع والمساجد

تدعو أثناء خطبها وتجاهر علناً بإطلاق صفة الكفر والإلحاد على جميع غير المسلمين، وأن بعض الخطباء يتفاخر أن هؤلاء الناس لا يستحقون الحياة...

ليس هذا فقط إذ ظهرت في الجيش بدعة جديدة وهي الدعوة إلى عدم طاعة أوامر الضباط غير المسلمين، مُستندين إلى نصوص دينية منها ما يرد في سورة النساء (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)، ولما كان المسيحيون والصابئة من غير المسلمين فلذا وجب عدم طاعتهم وعدم الامتثال إلى أوامرهم العسكرية، هذا ما سمعته شخصيًا من أحد أصدقائي الضباط المقربين وزميلي في الدراسة الجامعية في الاتحاد السوفيتي، وهو العقيد (ن.ف) حيث قالها لي بالحرف الواحد دون أية مواربة أو خجل ولكن بطريقة غير استفزازية.

هكذا كانت أجواء العمل في الجيش، الكل يتحسب من الكل، والجميع يحاول الإيقاع بالجميع، الانضباط العسكري الذي هو عماد عمل ونجاح الجيوش انهار إلى الحضيض، وأصبحت كلمة (عيني) أو (أبا فلان) تحل بدلاً عن كلمة (سيدي)، المحسوبية والمنسوبية والرشوة أخذتا مأخذهما في عمل الجيش، كما أن الذي فاقم الوضع سوء هو انخفاض القدرة الشرائية لرواتب أفراد الجيش بشكل عام، إثر التضخم الاقتصادي الهائل وانهيار العملة العراقية إلى أدنى حد بحيث أصبحت رواتب العسكريين ضباط ومراتب لا تكفي لسد احتياجات العائلة، مما دفع الكثير من الضباط إلى العمل في مجالات عديدة مثال التجارة وإدراة محلات وورش تصليح، وحتى في العمل كسائق أجرة بسياراتهم الشخصية التي منحها لهم الرئيس صدام حسين يوم ما.

يوم رائق وسماء زرقاء شفافة وشمس ساطعة، أجلس في مكتبي خلف منضدتي أمسك بقلمي بهدوء أمضي على رسائل بريد وحدتي جناح التصليح العام، بعد أن حصلت على ترقية إلى رتبة عقيد وتسلمت منصب قائد الجناح، رن جرس الهاتف مقتحمًا هدوئي، رفعت السماعة، على الجهة الأخرى يظهر صوت قائد

المعمل مبحوح وضعيف الطاقة يكاد لا يُسمع، يحاول جهده إظهاره فيخذله، يستجمع القائد طاقته كي يطلق عليّ كلمتين فقط (تعال فورًا)، أغلق الهاتف وجعلني في حيرة كبيرة من أمري.

يا إلهي رحماك ما هذا، ماذا حصل كي يكون القائد بهذه الحالة وهو القوي الجبار دومًا؟ لا أعرف... قد تكون هناك مهمة جديدة يريد القائد تكليفي بها وإرسالي إلى إحدى القواعد الجوية، بعد أن تعسرت بهم أمورهم الهندسية، وتحديدًا في موضوع محركات الطائرات.

لقد تعودت كثيرًا على مثل هذه الاتصالات المتأخرة والمفاجئة، وكانت أحيانًا تحصل حتى قبيل انتهاء الدوام الرسمي بدقائق معدودات، كي أحزم عدتي وأمري وأتجه فورًا إلى إحدى القواعد الجوية لحسم أمر مهم ما، أو إلى اتخاذ قرار حاسم حول موضوع هندسي حساس يتعلق بصلاحية المحركات، غالبًا ما كنت أصطحب معي نائب ضابط يمتلك سيارة شخصية كي نذهب بها لانشغال سيارت المعمل العسكرية بنقل الضباط من وإلى دورهم، وحين أنتهي من إنجاز مهمتي بنجاح؛ وكمكافئة متواضعة على جهده كنت أمنحه إجازة إضافية كي يرتاح ويتمتع مع عائلته، أو يستغلها في عمله الثاني.

نهضتُ على عجل أمسكت بغطاء رأسي وضعته ونظرت إلى المرآة، عدلته وبدا جيدًا... كنت أنزعج كثيرًا من إرسالي بمهمات فورية إلى القواعد الجوية مثل قاعدة البكر أو الحبانية وحتى غير القريبة من بغداد، ما أن أكون قد هيأت نفسي للذهاب إلى البيت كي أتناول وجبة طعام شهية مع زوجتي وأولادي وأستلقي لأخذ قيلولة تنسيني تعب الدنيا وهموم العمل، كنت أنزعج أكثر حين لا أجد من يعينني في تنفيذ عملي بعد وصولي إلى القاعدة عصرًا، حيث الجميع قد تركوا أماكن عملهم وخلدوا للراحة في غرفهم، وحيث أن الجو حار ولاهب لا أستطيع حتى أن أضع يدي على جسم الطائرة أو المحرك لشدة سخونتهما.

حثثت خطاي نحو مقر المعمل واتجهت مباشرة لمكتب القائد، طرقت الباب وتجاوزته، أديت التحية العسكرية، القائد طلب مني الجلوس، كان متوتر تبدو على محياه آثار الدهشة والحيرة، نهض وأشار لي أن أرافقه إلى الخارج وقال دعنا نستطلع بعض وحدات العمل، أخذنا نسير في الطريق المؤدي إلى جناح تصليح المعدات الكهربائية، عندها أخبرني أن مديرية الاستخبارات الخاصة بقيادة القوة الجوية قد أرسلت بطلبنا لأمر طارئ ما، كالسيف البتار نزلت هذه الكلمات عليّ وقطعتني أوصالاً وأزالت عني كل آثار الجوع والشهية لأي طعام، هذه الكلمات دفعتني بقوة إلى جوف الزمن الأغبر، وذكرتني بحادثة عناصر حزب الدعوة الذين تمَّ إلقاء القبض عليهم في بداية الحرب العراقية الإيرانية عام ١٩٨١، انتشلتني كلمات بسيطة من واقعي الطبيعي وجذوري لترميني لعشر سنوات إلى الوراء، لتعيد ذكريات آليمة وقاسية، إذاً فالتاريخ يعيد نفسه، بئس هذا التاريخ الأسود.

– نعم سيدي... ما هو موضوع الاستدعاء وحول أي شيء؟

بقلق وحذر شديدين سألت القائد، ولكنه لحظتها كان قد شرد بأفكاره ولم يركز على سؤالي بتاتاً، انتظر منه إجابة ولا أي رد فعل منه، كان يرسل نظره إلى المدى البعيد دون نتيجة، اقرأ أفكاره وأرى أن مصيبة كبير قادمة لا محال، ينظر إليّ دون وعيٍ، أحكي معه لا يسمع، ينظر إليّ لكن لا يراني، مضت لحظات عديدة وأخيرًا قال لي:

– لا أعرف لماذا أرسلت الاستخبارات الجوية بطلبنا، ولكن سنذهب غدًا ونرى...

وهكذا انتهت محادثتنا ومضى كل منا إلى وجهته دون رغبة.

العميد بشير رجل متوسط القامة نسبيًا ممتلئ البدن ذو بشرة سمراء وشعر أسود، يمتلك روح الفكاهة والمرح وصنع المقالب المضحكة، قدير في إدارة الحديث، له باع طويل في الشعر والنثر والحكايات الشعبية، مهندس من الدرجة

الأولى خريج الكلية الفنية العسكرية في القاهرة وينحدر من مدينة البصرة، عمل في القوة الجوية وتقلد العديد من المناصب وتدرج بها حتى وصل إلى منصب قائد معمل تصليح المحركات النفاثة الجوية في التاجي، شارك في العديد من الدورات الهندسية التطويرية داخل وخارج العراق، أخرها كانت دورة تخصصية في التصليح العام لمحركات الطائرات في الاتحاد السوفيتي، حيث كنتُ معه في هذه البعثة.

عملت مع القائد سنوات عديدة وأستطيع الجزم أنه ضابط ذو مواصفات قيادية متفوقة، مهندس كفء محنك ويمتلك قدرة عالية على إنجاز الأعمال الهندسية والفنية والإدارية وتنسيق الأعمال في مختلف الاتجاهات، ونظرًا لكفاءته البائنة فقد تمَّ إرساله ضمن وفود رسمية عديدة منها من يُمثل وزارة الدفاع العراقية، ومنها من يمثل قيادة القوة الجوية أو غيرها فيما يخص عقود شراء الطائرات والأسلحة، وغيرها فيما يخص المباحثات والتعاون العسكري بين العراق والعديد من البلدان الأخرى.

حاز على إعجاب قادته واستنادًا لكل ذلك تمَّ ترشيحه لمنصب رفيع في قيادة القوة الجوية، وهو منصب معاون قائد القوة الجوية للشؤون الهندسية، وهذا مع أسباب أخرى، ما دفع البعض إلى محاربته ومحاولة إسقاطه والزج به في آتون سجن الاستخبارات العسكرية في الكاظمية، على أساس تهمة تتعلق بالتعرض لسمعة الدولة، وأخرى زائفة كثيرة تمَّ تلفيقها له بتخطيط منسق وإحكام وعناية كبيرة.

* * *

المكان: قيادة القوة الجوية في ضاحية المنصور الراقية في بغداد.
الزمن: الساعة التاسعة صباحًا عام ١٩٩٢ ميلادي.
الحالة الجوية: صيف مشمس وحار جدًا.
الموقع: مديرية الاستخبارات الجوية / الشعبة الأولى.
الضابط المسؤول: العقيد (م) التكريتي / مدير الشعبة الأولى.
تخطيت والعميد بشير بوابة مديرية الاستخبارات الجوية، واتجهنا نحو الشعبة الأولى منها حيث ينتظرنا مديرها العقيد (م)، الذي جلس وتربع خلف منضدة كبيرة جدًا يكاد يكون يغطيها بحجمه الكبير، العقيد (م) رجل كبير الجثة عريض الكتفين ضخم الرأس كالشيطان دون قرون، تبدو ملامح وجهه الضخم قاسية رغم محاولاته الفاشلة في الاتشاح بالتواضع ودماثة الأخلاق لإضفاء شيء من اللين، أسمر قاتم البشرة ذو شعر أسود مجعد وينحدر من محافظة تكريت مسقط رأس الرئيس صدام حسين.

ما أن دخلنا حتى نهض العقيد (م) تصافحنا بهدوء رجانا الجلوس، دقائق معدودات من كلام المجاملات المصطنعة التافهة حتى تمَّ استدعاء العميد بشير إلى مكتب آخر وبقيت وحدي مع هذا الثور الأسود، من هذه اللحظة بدأ الوضع ينذر بخطر شديد، لبس العقيد (م) وجهه الحديدي الحقيقي بعد أن ولت الابتسامة المزيفة عنه وهنا بدأ التحقيق الجدي وفي نفسي أهمس وأقول: "يا آدم أبو الفرج[1] أنقذني من شر هذا الغول"، بعد أن أخذ بالتدخين بتلذذ، وبدا كأنه أكثر تركيزًا واستعدادًا للتحقيق، بدأ يوجِّه أسئلته لي:
العقيد (م):
– ما هي صلتك بالعميد بشير؟
– إنه قائدي وأعرفه من سنين، ولقد عملنا سويًا.
– ما نوع العلاقة بينك وبينه؟

١– شخصية مندائية نقية كان لها دور في نصرة المندائيين ضد من تصدى لهم وهزيمتهم.

– علاقتي به علاقة عمل واحترام.
– أنا أقصد علاقتك العائلية به!

– نعم سيدي، الحقيقة ليست لدي به علاقة قُربى قريبة، وكما تعلم نحن من دين واحد، أنا وهو صابئيا الديانة...

– هل هو نسيبك؟
– كلا سيدي، لا أنا نسيبه ولا هو نسيبي.
– هل أنت متزوج من شقيقة العميد بشير؟
– كلا سيدي، أنا غير متزوج من شقيقة العميد، وهو كذلك ليس بزوج شقيقتي.
– لدي بيانات تفيد أنك متزوج من شقيقة عميد بشير فماذا تقول؟

إذًا أرادوا إحضاري إلى هنا كي يهينوا إنسانيتي، العقيد (م) ومن على أمثاله نكرات تحاول الهيمنة على كل شيء حتى حيوات الناس، عليّ تقبل اختلافي عنهم ونظرتهم الدونية، وأتصرف بموجبها كي أستطيع مُجاراتهم، وأن أرد سهامهم المسمومة ضدي نحو نحورها وأمضي قدمًا في حياتي، كان فظًا في إطلاق سؤاله لذا أجبته بشيء من القوة المعجونة باللطافة المصطعنة:
– سيدي أخشى أن تكون بياناتك غير صحيحة، أنا وعميد بشير صابئيان مندائيان، لكننا لسنا بأنسباء، ويمكنني توضيح الأمر لك، نحن الصابئة المندائيون طائفة دينية صغيرة تتكون من سبعة عشرة عشيرة مستقلة، وأنا أنتمي لإحداها والتي تدعى الزهيرية، وزوجتي تنحدر من عائلة أخرى وهي البريجية، كما أن عميد بشير يأتي من عشيرة ثالثة وتدعى الخميسية، وزوجته تنحدر من عشيرة السبتية، لذلك لا توجد بيننا أية صلة نسب أو قُربى وثيقة، ولكننا جميعًا من عشيرة واحدة ونشترك في رابطة الدين والدم، ولدينا علاقات اجتماعية ممتازة نفخر بها، وأنا أفخر كون العميد بشير هو قائدي.

العقيد (م) يحرك رأسه الضخم إلى الأعلى والأسفل زامًا شفتيه الغليظتين قائلاً:

– هكذا إذًا أنتم لستم بأنسباء...

– نعم سيدي، وهل جميع المسلمون أنسباء كونهم من دين واحد؟

– لنتحول إلى موضوع آخر يختلف عن هذا تمامًا، هل تستطيع أن تخبرني عن أموال نثرية جناح التصليح الذي تقوده أنت؟ وكيف يتم صرفها وأين تذهب الأموال؟

– نعم سيدي لدي لجنة خاصة بإدارة موضوع أموال نثرية جناحنا ومشترياتها، مستقلة بعملها وترتبط بي، تتكون من ثلاثة ضباط؛ اثنان منهم برتبة مقدم والثالث برتبة نقيب، وهم غاية في الكفاءة والحرص والأمانة.

– نعم أنا اعرف كل هذا، وبحوزتي سجل النثرية الخاص بوحدتك العسكرية وهذا هو...

(يرفع بيده الثقيلة الضخمة السجل الكبير الذي يأتيني نهاية كل شهر كي أدققه وأصادق عليه ويُشير لي به، لم أعلم كيف وصل إليه ولم يعلمني أحد بذلك).

– نعم هذا هو سجل أموال الصرف الخاصة بوحدتي، ويمكنك الاطلاع على جميع مدخولات ومصروفات وحدتنا، كما يمكنك سؤال ضباط اللجنة ومعرفة الحقيقة منهم مباشرة...

– نعم، نعم لقد فعلت ذلك بالفعل وسألتهم...

– هذه مسؤوليتهم المباشرة، وفي نهاية كل شهر أقوم بعملية التدقيق النهائي للمشتريات ووصولاتها كي أصادق عليها...

– أنا أطلب منك أن تشرح لي كيفية استلام الأموال وصرفها؟

انا مستعد للاحتراق في الجحيم على أن أدع هذا الغول وغيره من أمثاله يتحكم بمصيري، وسأطلق أفضل دفاعاتي ضد ادعاءاتهم الكاذبة وقلت:

– نعم سيدي عند حاجة أعمال إعادة الإعمار الكبرى إلى مبالغ نقدية وهذه الحاجة كما تعلم مستمرة، نقوم بإصدار شهادة صرف بقائمة المواد ضمن مبالغ محددة لغرض شراء محددة، وضمن المواد المُصرح بها، حتى وإن كنا نستخدمها لأغراض أخرى مثل شراء مواد احتياطية لتصليح عجلاتنا العسكرية ومواد أخرى لا تقع ضمن قوائم مواد شهادة صرف المبالغ، وضباط اللجنة يتعاملون مع الموضوع بشفافية كبيرة وأمانة أكبر، وأنا أثق بهم، وفي نهاية كل شهر أقوم بتدقيق الحسابات بالكامل وأصادق عليها، أنا يا سيدي أصدر أوامر شراء بالمواد التي يحتاجها عملنا ولجنة النثرية هي من يقوم بالشراء وباقي أعمال اللجنة.

– لم يبقَ لديّ أي سؤال آخر وإن حصل سأرسل بطلبك لاحقًا... شكرًا وتستطيع الذهاب الآن.

– شكرًا سيدي، وأنا مستعد للإجابة على أي استفسار أو سؤال، ولكن أين العميد بشير؟

– قد تطول قضية عميد بشير، ولكن يمكنك الذهاب إلى البيت.

– على أية حال سأنتظره لأننا قدمنا إلى هنا بعجلة واحدة.

بخطوات ثقيلة متباطئة مندهش؛ نهضت مُبارح مكتب العقيد الأدغم الضخم غير مُصدق أنهم تركوني سالمًا حَيًا، وأن التحقيق قد انتهى بهذه السرعة وهذه السهولة وخلال أقل من نصف ساعة فقط، وإن بدت ليّ دهر.

تدور بي الدنيا وتستقر ثم تدور، وأنا في انتظار قائدي الذي طال انتظاره ولا أعلم ماذا حل به، ولكن يبدو لي أن موضوعه يختلف تمامًا وأكثر خطورة وتعقيد، تختلط الأحاسيس والأفكار عند المرء في مثل هذه الحالات، يقلق يرتبك يقتحمه الخوف ويركبهُ المجهول، يأخذ منه الرعب مأخذ، وبالنتيجة يبقى أسير أفكاره وقلقه دون إجابات ودون أن يستطيع عمل شيء سوى الانتظار القاتل.

ما الذي يحدث؟ ما هذا الذي حصل توًا؟ وما هذا السؤال السخيف الذي طرحه عليّ عن صلة القربى بالعميد؟ لماذا يستدعيني هذا العقيد الأدغم ذو النزعة الشيطانية ويمطرني بأسئلة تافهة كشكله؟ بعضها شخصي جدًا وآخر عن أموال نثرية جناحي؟ ثم كيف وصل له السجل الخاص بمصروفات جناحي وأنا لم أعرف أي شيء عن ذاك؟

ألف سؤال وسؤال أطرحها على نفسي ولا أستطيع الإجابة على أي واحد منها... ثم ما علاقة استدعائي مع قضية العميد، ولماذا يسألني عن صلة النسب معه؟ لا أفهم أي منطق لهذه الأشياء، وما علاقة موضوع نسبي مع أموال مصروفات وحدتي؟ لا يوجد رابط بينهما...

وهكذا يمر الوقت ببطء ثقيل وقاتل، وأنا أستمر في أسئلتي وحيرتي وخوفي من المجهول ولا أحد يجيبني عنها... كل ما أعرف أني في حضرة الاستخبارات وتحت رحمتها الكاملة...

انتظر وانتظر... ساعات تمر وتأتي غيرها، وأنا كمسمار قد دُقّ على خشبة ونَسوه، أعصابي منهارة وقلقي يتعاظم مع مُضي كل ثانية ودقيقة من الزمن، كل شيء يسير بغير عقل، لا نقاش العقيد الأسود ولا أسئلته تتبع للمنطق، أحاول السيطرة على نفسي بصعوبة ولا أقدر.

الموضوع برمته يقلقني كثيرًا وسيبقى يؤرقني لحين معرفة الحقيقة، ولكن متى سيخرج العميد، هو الوحيد من يمكنه أن يضيف إلى معرفتي شيء، وقد يوصلني إلى الحقيقة، وهذه فقط التي قد تريحني وتجعلني أشعر بهدوء نسبي.

أحيانًا يضحك المرء من شدة الألم ولكني لست قادر على الضحك، ويبدو لي أني وسط نزال شرس بين الخير والشر، ولا أعرف من سينتصر أخيرًا، لكن كل ما أعرف ومتيقن من أني لم أفعل شيء يخالف لا القوانين ولا الأعراف،

ولم أخن ضميري، ولهذا فإن عقلي مستريح بعض الشيء، ولكن أحياناً فإن الدنيا غدارة وللشر وجوه عديدة ويمكن للباطل أن يسود.

تعدت عقارب الساعة إلى بعد الظهر ولم يظهر العميد وأنا في انتظاره، يبدو أن قضيته كبيرة وخطيرة وليس مثلي، ولكن ما هي قضيته وتهمته؟ ما الذي يفعله الآن في الداخل؟ هل هو حي أم ماذا؟ يا إلهي ارحمنا وانقذنا من شر الظالمين.

الساعة تشير إلى الثانية بعد الظهر ولقد مضى خمس ساعات كاملة على قدومنا والعميد لم ينته، ما عساي أن أفعل؟ هل أذهب للبيت بسيارة أجرة أم انتظره للنهاية؟ ماذا أفعل يا ربي... ولا أحد يعينني على هذا الحال، إذ أن كل من يمر بقربي هم من جماعة العقيد (م) ذوي القلوب المتحجرة، كالسهام السامة يطلقون نظراتهم وكأنها تصرخ بي ارحل اخرج فورًا وإلا ستبقى دهر تنتظر...

لا أعرف كيف تموت مشاعر هؤلاء الجلادين وتصبح كالصّوان جامدة باردة، للخوف وقع خاص حيث يجعل صاحبه يفقد التحكم بسلوكه وتفكيره، وأخيرًا يظهر شبح ضخم مكفهر الوجه مرتبك كليًا ينظر ولا يكاد يرى، لا أكاد أعرفه لقد تغيرت ملامحه، سحنته، لون بشرة وجهه، عيونه بدت غامقة غائرة في محاجرها، يسير بقربي دون أن يميزني، يتخطاني دون انتباه، نهضت فورًا حييته ولا أذكر أنه أجاب، قلت له انتظرتك طويلاً هل سنذهب الآن إلى البيت؟ فهز برأسه نحو الأعلى والأسفل ومضينا.

اتخذنا مجالسنا في المقعد الخلفي في عجلة القائد العسكرية نوع تويوتا سوبر كراون، وانطلقت تنهب بنا الأرض إلى ضاحية السيدية حيث يقيم العميد، الصمت يلف العميد بكامله، يجلس هادئ ورأسه في صدره، عيناه زائغتان مشدوه البال يبدو أنه في عالم آخر، بطرف عيني أحاول أن أسترق البصر إليه، أرى العرق يتفصص على شكل كرات صغيرة على جبينه ولا يمسحها، ما زال على حاله صامت صمت القبور، اسأله لا يسمع ينظر إليّ دون وعي أو بصر، وفجأة قال كلمة واحدة: "كارثة" وصمت، أصمتُ أنا أيضًا والعجلة تجتاز

الشوارع المزدحمة، الجو خارج السيارة ساخن لاهب لا يطاق، جهاز تكييف التويوتا يناضل بقوة كي يجعل حرارة السيارة مُعتدلة ومقبولة.
يشد السائق على الفرامل تتوقف العجلة والعميد كآلة خارج الزمن ما زال يجلس صامت، أمسكت بهدوء طرف يده اليسرى التفت إليّ، أقول له ها نحن أمام بيتك، دون أن يصرح بأي شيء يسحب نفسه بثقل وتردد يترجل من العجلة، يدخل بيته ولا أذكر أنه حياني مودعًا، أغلقت باب العجلة وانطلقت بي تمخر عباب الطريق السريع تجاه ضاحية الغزالية.

ما الذي يجري؟ وماذا حصل مع العميد؟ لا اعلم... هل أخبر زوجتي مباشرة عن الأمر؟ انتظر قليلاً كي لا أفسد عليها طعام الغداء، نعم هذا أفضل عليّ أن أؤجل الحديث إلى ما بعد قيلولة العصر، ولكن أي عين سيأخذها النوم بعد كل ما حصل، سأحاول وسأقبل الرهان...

مساء نفس اليوم الجو أصبح أكثر اعتدالاً، الشمس سحبت جميع سياطها الساخنة دون حرج فانخفضت درجة الحرارة قليلاً، خرجت إلى حديقة منزلي سقيت الأشجار والزهور بالماء، رششت سجادة الحديقة ذات اللون الأخضر الساحر وجلست على الأرجوحة، هبت بعض النسائم المنعشة المُرطبة لرذاذ الماء، أقبلت زوجتي تحمل صينية عليها أكواب الشاي المعطر بالهيل، انضمت إليّ في الأرجوحة، قدمت لي كوب الشاي ذو الحجم الكبير الذي اعتدت عليه وقالت:
– والآن هات ما عندك، فلقد سئمت الانتظار وركبني الخوف من رأسي حتى أخمص قدميّ فأخبرني ما حدث؟

أخذتُ ألملم نفسي وأستجمع أجزاء جسمي، وألصق الأحداث ببعضها كي أستطيع تكوين صورة متكاملة، ولكني لم أفلح بذلك، ألحت عليّ زوجتي بعد أن نفذ صبر النساء فيها، وهنا بدأت أسرد قصتي وقصة العميد بشير دون ترتيب.

تستمع زوجتي صامتة وعيونها زائغة تتوسع شيء فشيء، بدت عليها علامات التعجب، تحول إلى قلق واضح ومن ثم تطورت إلى الخوف وصرحت قائلة:
– ما هذا الذي يحصل لنا، ما الذي فعلناه لهم كي يعاملوننا بهذه الطريقة اللا إنسانية؟ وهل الموضوع له علاقة بكوننا صابئة مندائيون[1]؟

أطلقت مئات الأسئلة التي لم تكن لدي أية إجابات عليها، مرت تلك الليلة الطويلة علينا، الحزن والقلق يخيم على أجواء بيتنا الوادعة ولم أعرف كيف مضت تلك الليلة الحالكة على عميد بشير وأسرته!!

نهضت باكرًا دون رغبة حقيقية، استقليت العجلة العسكرية مع زميلي العميد المهندس (ع) وتوجهنا شمالاً نحو التاجي إلى مكان عملنا، وبدأنا يوم عملنا المُعتاد، كانت تتراود لي أحاسيس تؤكد النظرات الغريبة التي يطلقها بعض الضباط نحوي، ولم أرغب أن أسألهم عن أسبابها.

ما هي إلا سويعات حتى أرسل القائد بطلبي إلى مقره، وما أن تخطيت عتبة بابه حتى نهض، كعادته اصطحبني من يدي وقال لنلقي نظرة على جناح تصليح المعدات وخرجنا... سِرنا وأثناء ذلك أخبرني أنه يرغب بالحديث عن مواضيع خطرة ولكن ليس في مكتبه، إذ أنه يعتقد ويشك أن الاستخبارات قد نصبت أجهزة تنصت وتسجيل، فبدأ بالحديث بعد أن بدا أنه قد استعاد توازنه النفسي نسبيًا واستجمع بعض من قواه، ليسرد ما حصل له اليوم السابق، سألته عن الكارثة التي تحدث عنها فأجاب:
– أخي عقيد عباس لقد حصلت يوم أمس كارثة كبرى، إذ أنهم وجهوا لي العديد من التهم الملفقة والمزورة، تصور عباس سبعة عشر من التُهم الملفقة

:- الصابئة المندائيون: أقلية دينية تعيش في العراق والجنوب الغربي من إيران. ورد ذكرهم في القرآن الكريم في ثلاث سور هي الحج والبقرة والمائدة وعدوا من أتباع الديانات التوحيدية، اقترن اسمهم بالنبي يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) مُبارك اسمهُ كأخر نبي ومعلم لهم.

والمزورة قد كالوا لي وأنا بريء منها جميعها، لا والأخطر ما فيها اتهامهم لي بموضوع غاية في الحساسية والخطورة ويتعلق بالأمن القومي للبلاد؛ وهي التطاول على السياسة العليا للدولة، هل تعرف شخص اسمه نائب ضابط عدنان وهو ينحدر من محافظة الموصل، هذا الكلب قد كتب ضدي تقرير حزبي وأرسله إلى الحزب مُدعيًا أني وخلال أيام أم المعارك قد قلت إن الأموال التي صرفت على التصنيع العسكري بها كان يمكن أن نجعل من شوارع العراق من زاخو إلى الفاو مكسوة بالمرمر الإيطالي، من أين جاء هذا الملعون بهذا الكلام؟ لا أعرف وكيف وصلت إلى مسامعه ما قلت لا أعلم، الموضوع برمته حدث قبل سنتين فكيف تذكر هذا الشيطان وما هو غرضه من إثارته في هذا الوقت؟.

كنت أنصتُ إليه بجدية بالغة، تملكتني دهشة كبيرة وصدمة أكبر جراء سماع ما قال فبادرت الحديث:

– وهل تعلم يا سيدي ماذا سألني هذا العقيد الأغبر؟ لقد سألني عما إذا كنت نسيبك ومتزوج من شقيقتك، وكذلك عن أمور مالية وصرفيات وحدتي، علمًا أن التحقيق كان قصير، وأقل من نصف ساعة، لقد انتهينا بسرعة وبقيت أنتظرك طويلاً حتى فقدت صبري وكدت أفقد عقلي من القلق، ويبدو أن قصتك أكبر وأخطر بكثير هل صحيح ما أقول؟ ولكن من هذا (العدنان)، أنا لا أعرفه ولم اسمع به قط.

العميد يضيف:

– نعم ليرحمنا الله... لقد وجدوا فينا هؤلاء الأوغاد لقمة سائغة اعتقدوا أنهم سيمضغوننا بسهولة، ولكني لن أسكت وسأرد لهم الصاع صاعين، إذ لدي علاقات واتصالات ومعارف على مستوى عال ورفيع، وسوف نرى ما يحصل.

لم أجعله يكمل حتى قلت:

– يا سيدي العزيز، أعتقد أن الموضوع برمته قد تمَّ برمجته بتخطيط فائق بحيث يتخلصوا من كلانا بضربة واحدة لكوننا صابئة مندائيون... والآن أريد أن أقولها لك بصراحة مطلقة، عليك أن تكون أكثر حذرًا أكثر من أي وقت مضى، وأن تتذكر دائمًا أننا صابئة ولسنا منهم في ظل ضعف سلطة الدولة والحكومة، وأتمنى عليك ألا تعتمد على أي شخص آخر، توكل على الله فقط، واعتمد على ذكائك وحنكتك.

يبدو أن كلماتي لم تقع في نفس القائد وأن حديثي لم يرق له فردَ قائلاً:

– وأنت لا تفهم ما يجري...

ومضى دون أن ينبس بكلمة أخرى...

من الواضح أن القائد لم يكن شخص بهذه السذاجة، لكن الخطأ القاتل الذي وقع فيه هو شعوره أنه أصبح خارج نطاق الحساب والعقاب بسبب كثرة معارفه المتنفذين، في حين لم أنسَ طوال حياتي في بلدي ولو للحظة واحدة أنني صابئي ولا شيء يستطيع حمايتي والحفاظ على رقبتي سوى كفاءتي وذكائي في عملي، حرصي وحذري الدائمين.

الناس في العراق كانوا يعتمدون على السلطة سواء كانت المستقاة من الحكومة والمنصب فيها أو القربى من العائلة المالكة، أو يتكئون على السلطة المدعومة من الانتماء للعشيرة، علمًا أن سلطة الدولة وهيبتها قد ضعفت تمامًا إثر هزيمة حرب الكويت فلم يبقَ للناس غير سلطة العشيرة، ولما كانت طائفتنا المندائية هي طائفة دينية صغيرة جدًا ومسالمة وفق مبادئها الدينية، وأن أخلاقياتها لا تقبل ولا تحض على القتل أو العنف أو إثارة المشاكل أو تشكيل المجاميع المسلحة لهذا؛ فهي كانت وما تزال الحلقة الأضعف في المجتمع العراقي، بعد أن حمتها سلطة الدولة المدنية أيام قوتها، والآن وفي ظل انهيار السلطة وتفاقم النعرة الدينية ضد الأقليات الدينية، فقد تمَّ استهداف الضابطين المندائيين أولاً.

وبذلك أصبحت حياة الناس في العراق تعتمد على شريعة الغاب والبقاء للأقوى، إن كل هذا فهمته وأدركته دومًا وعملت بموجبه وتعاملت على أساسه، ولم أنس يومًا أني صابئي مندائي قوتي وسلطتي ونجاتي تكمن في علمي وعملي وكفاءتي وأدائي وحذري ودقتي في العمل، كل هذا مجتمعًا كان السبب الأساسي بعد الحماية الإلهية والتي حظيتُ بها لاستمراري في الجيش دون أن تُرسل رقبتي يومًا إلى المقصلة.

الأيام تمر مشحونة مجنونة قلقة وتحمل في طياتها أنباء لا تُبشر بالخير، إذ زارني بعض نواب ضباط وأحدهم يدعى نائب ضابط (ع) وهم يعلمون جيدًا بالرابط الديني الذي يجمعني بالعميد بشير، أعلموني أن هناك من يُدبر لمكيدة كبيرة وخطيرة للإيقاع بالقائد، وهؤلاء يسعون لجمع شهادات وتواقيع أكبر عدد من منتسبي المعمل بغرض تثبيت ودعم الاتهامات التي وجهت له.

نعم إن نائب ضابط عدنان يُسانده المقدم المهندس (ح.ف) والذي ينحدر أيضًا من محافظة الموصل؛ هما من كانا يقودان حملة جمع الشهادات في معملنا، المقدم (ح.ف) مهندس خريج هندسة الطيران من الإتحاد السوفيتي ضمن الدُفعة الثالثة، معتدل القامة نحيل البنية أسمر اللون ذو وجه أصفر حقود، وكأن نجاسة وخباثة الكون كلها قد تجمعت فيه مرة واحدة، مذمومًا له الكثير من دنائة الطبع، يسعى إلى تقصي عيوب الآخرين دون النظر إلى عيوبه، له طموح غير محدود نحو السلطة والمنصب سواء في الجيش أو الحزب الحاكم، تدرج في حزب السلطة الحاكم إلى أن أصبح عضو قيادة فرقة لغاية ذلك الوقت، والله وحده يعلم كم رقبة بريئة قد أصبحت تحت رحمة سلطته الظالمة حتى وصل إلى هذه الدرجة الحزبية.

أخبرني نائب الضابط (ع) والذي يعمل في حضيرة تصليح العجلات؛ أن مجموعة مقدم (ح.ف) ونائب ضابط عدنان تعمل جاهدة لإقناع أكبر عدد من المراتب للإدلاء بشهاداتهم ضد قائد المعمل.

بعد معرفتي بكل هذه التفاصيل التي استدعتني أن أتخذ إجراء سريع في ضرورة تحذير العميد عما يجري، اتصلت بالعميد بطريقتنا الخاصة وأعلمته بجميع التفاصيل الخطيرة التي وردتني، وحذرته مرة أخرى لكنه لم يحفل بها، ولم يبد اهتمامًا كبيرًا لها اعتقادًا منه أنه وبعد أن وصل بالرتبة والمنصب والعلاقات إلى مستوى جيد جدًا، فهو قد أصبح يتمتع بالحصانة من أي عقوبة أو إجراء عنيف، لقد حاولت كثيرًا أن أوضح له هذا الأمر، ولكنه للأسف الشديد لم يتقبله ولم يعمل به إطلاقًا.

كنت أول من سعى لتوثيق حدث العدوان الغاشم ضد بلدنا، والقصف الجوي العنيف الذي طال معملنا، مع التطلع إلى إنشاء رمز لذكرى الدمار الهائل الذي حلّ بالمعمل؛ وذلك بإقامة نصب تذكاري للعدوان وآثاره الدنيئة، حيث قمت بتخطيط وتنفيذ نصب يتكون من نجمة ثمانية مرتفعة عن الأرض بمسافة متر واحد، يحيط بها حزام نُقش عليه العلم العراقي بألوانه الثلاث تتربع على سطح النجمة العديد من أجزاء الركام الحقيقي للأبنية، تتوسطه وتخرج من قلبه دعامتان حديديتان ملتويتان منصهرتان تحتضن أحداهما الأخرى وتلتف حولها بارتفاع عدة أمتار عن سطح النصب تجاه السماء.

كما يتضمن النصب أشكال تعبيرية كثيرة أخرى، مثل أن تنغرز وتنتصب على سطحه العديد من المعدات وأجزاء المحركات المتضررة، هذا النصب أشرفت على تنفيذه لعدة أشهر كي يبقى يتكلم يشهد ويصرخ ليحكي للأجيال القادمة قصة العاملين الأبطال في هذا المعمل، الذين تحدوا أنفسهم والزمن وأحالوا المستحيل إلى حقيقة في عملية إعادة إعمار هذا المعمل.

لم تمضِ أيامًا قليلة حتى حصل منعطف خطير آخر يخص نفس الموضوع، إذ وعند نهاية الدوام الرسمي وبينما كنت أبحث عن زميلي وصديقي العميد (ع.أ) والذي يشاركني العجلة العسكرية لغرض العودة إلى البيت؛ وجدته منتصبًا ضمن مجموعة تضم العميد بشير ونائب ضابط آخر لم أعرفه ولم أره سابقًا،

تقدمت نحوهم بهدوء ألقيت التحية العسكرية، حينها كان العميد يوجه سؤاله للشخص الذي لا أعرفه، لحظتها اعتقدت أنه من غير اللائق أن اطلب من العميد (ع.أ) الانسحاب من المجموعة بينما كان القائد يتحدث، ولهذا انتظرت على مضض وليتني لم انتظر:

– هل أنت سمعتني بأذنك أقول مثل هذا الكلام؟

العميد موجه سؤاله للنائب ضابط الكالح اللون، والأخير يجيب بقوة وحزم دون أية علامة على تردد أو تهيب أو اعتبار لرتبة القائد.

لقد كان النائب ضابط ينظر مباشرة لعيني العميد دون إزاحتهما عنه بتحدي ظاهر، ويجيب على أسئلته بنبرة قوية وصارمة، مذهولاً مما يحدث أقف واستمع إلى هذه المحادثة الغريبة والبعيدة عن سياقات العسكرية التي تعودنا عليها:

القائد:

– كيف سمعتني أقول هذا وأنت تعمل في حانوت الوحدة منذ سنتين أو أكثر؟ ولماذا لم تكتب عنها سابقًا إن كنت حريصًا؟

نائب ضابط عدنان:

– نعم لقد سمعتك...

ولم يزد، كانت تعبير وجهه تنم عن حقد أصفر دفين وعميق، ويبدو أنه كان مستند إلى قوة أو سند ما، بحيث يجعله يتصرف بهذه الصرامة وهذه الثقة العالية، إن لم نقل الغرور الأعمى.

عندها توضح لي أن هذا الشخص هو نائب ضابط عدنان بعينه كاتب التقرير الحزبي ضد العميد، وهو المسؤول عن أكبر وأخطر قضية مصيرية في حياة العميد، ومنعطف خطير في حياتي أيضًا، والتي دفعتني إلى اتخاذ إجراءات

حاسمة لاحقًا، كانت يمكن أن تطيح بحياتي بعد أن أطاحت بمستقبلي المهني والوظيفي.

لقد علمت توًا أن أسود الوجه هذا هو (عدنان)، الذي كان طيلة فترة ما بعد الحرب والدمار الهائل الذي حدث لوحدتنا ومنشآتها يعمل في حانوت المعمل، (متجر صغير يؤمن احتياجات ضباط الصف من مأكولات ومواد أخرى)، بعيدًا عن جميع أنواع العمل القاسي والشاق، كان يتمتع تحت نسائم جهاز التكييف في حانوته بينما كنا نحن بين الأنقاض والركام والتراب، وهنا ثارت ثائرتي كأن مسًّا قد أصابني وأفقدني صوابي، وبعد أن استأذنت من القائد توجهت بالسؤال إلى هذا المسخ عدنان، رغمًا عن إرادتي خرج سؤالي حاد صارم هجومي ومباشر:

– يعني أنت سمعت هذا الكلام من العميد قبل سنتين ولم تفعل أي شيء، كنت مغمور لا تعمل شيء تخبئ نفسك في حانوت المعمل، بينما كُنّا هنا نعمل خلال هاتين السنتين الطويلتين تحت التراب والطين وبين حفر القنابل وركام الحديد وأنقاض البناء، رفعنا البنيان عاليًا حتى أعدنا هذا الصرح العظيم إلى الخدمة، وأنت أين كنت؟ لِمَ لم تشارك بأي شيء؟ نعم لقد كنت منشغل بكتابة التقارير الحزبية ضد العاملين الوطنيين...

قلت كلماتي الساخنة والشرر يكاد يتطاير من عينيَّ... لم تمر سوى ليلة واحدة فقط على هذه الحادثة؛ إلا وتم إلقاء القبض على قائد المعمل العميد بشير وإيداعه سجن الاستخبارات العسكرية العامة في الكاظمية، هذا الأمر الذي أدهش الجميع دون استثناء...

والآن يقبع القائد الصابئي المندائي في أقبية الاستخبارات المظلمة، والله وحده هو الذي يعلم ما الذي يحصل له، هذا أول الغيث ما الذي سيحصل لاحقًا، لا أحد يعلم، ما هي خطتهم المرسومة الكاملة؟ كيف سيتم إكمال تنفيذها، وهل أنا سأكون ضمن فقراتها؟ يبدو كذلك إذ أن الاستخبارات قد أرسلت بطلبي سابقًا

وهذا يعني أني سأكون حتمًا ضمن إحدى فقرات مخططهم الشرير، ما العمل إذًا؟ لا شيء بيدي سوى الدعاء من الحي العظيم أن يقف إلى جانب العدل والإنصاف، وأن ينقذ العميد ويُجنبني شر أعمالهم الخبيثة، لا أحد في آمان في ظِل هذا الوضع وتحت سيطرة هذا النظام.

فورًا ودون أي تلكوء أو تأخير؛ اتخذت قيادة القوة الجوية قرارها الذي لا يبشر بخير، بإرسال العميد المهندس (التكريتي) كقائد جديد إلى المعمل بدلاً عن العميد بشير، وهذا يعني أن غياب بشير عن المعمل سيكون لفترة طويلة إن لم نقل نهائيًا أو حتى نفيه بالكامل.

ما أن وصل العميد التكريتي إلى المعمل حتى أرسل بطلبي كي يبلغني وبتشفي واضح بضرورة توجهي في اليوم التالي إلى مديرية الاستخبارات العسكرية العامة، يبدو أن بنود خطة الأشرار تسير حسب جدولها الزمني بشكل جيد.

الوقت يمر ببطء شديد، الجو ثقيل وخانق الوضع مكهرب ويثير الخوف والقلق الكبيرين، الأمور تتدهور نحو الأسوأ بشكل دراماتيكي سريع، لا شيء في الأفق يشير إلى تفاؤل أو اطمئنان، الكل في حذر وترقب وخوف، لا أعرف لماذا أرسلت الاستخبارات العامة بطلبي! هل الأمر يتعلق بقضية العميد بشير أم سواها! الأمور السيئة كثيرة ولا يمكن التكهن بأي شيء، الآن أنا في حضرة الاستخبارات العامة وليست استخبارات القوة الجوية، هذا يعني أن الموضوع أخذ بُعد جديد أكبر، سأذهب غدًا وليحفظني هيي قدمايي[1].

انتهى الدوام الرسمي، منهك مسحوق عدت إلى البيت، أخذت حمامًا باردًا منعشًا، جلست في غرفة المعيشة مع أولادي زيد وهند وفرح بينما انهمكت زوجتي في المطبخ لتحضير طعام الغداء، أنظر في عينيّ أولادي وأرى فيهما البراءة والإنسانية والصفاء، تهدأ أعصابي وينخفض مستوى توتري، أحكي

١- الحي الأزلي.

أمزحُ ألعبُ معهم أرتاح وتَستكن سريرتي، لا شيء يريحني ويزيل تعب وشقاء وهَم الدنيا عني أكثر من النظر في أسرار الحياة الطاهرة والنور السماوي الذي تبرق به عينا ولدي زيد وابنتيّ هند وفرح، تهون عليّ مصائبي وتستقر نفسي، هكذا كنت أزيل أدران الدنيا وبلاء الحياة من عقلي بهم، أهرب من عالمي وأنفذ في عالم الطفولة البكر البريء الذي لا ظُلمة ولا ظلام فيه.

أوشك الليل الطويل على الانقضاء بعد أن بدأت خيوط الشمس بالانتشار، توكلت على الله صباحًا في ظِل النهار المتدفق، قبلت زوجتي وأوصيتها بوالديّ وأولادي خير، نظرت في عيني أبنائي قبلتهم جميعًا، كالمقاتل يحمل كفنه سرتُ نحو قدري إلى الاستخبارات العامة في الكاظمية حيث يقبع العميد بشير دون أن يعلم أحد بمصيره ودون أن يعلم هو أني سأكون على سطح الأرض التي فوق رأسه.

قسرًا حشرت نفسي في سيارتي، خفقان قلبي يتسارع، دون رغبة أدرت مُحركها بينما شيعتُ زوجتي وأولادي الواقفين في باب المطبخ بنظرة مفعمة بالحب والوداع، نظرات زوجتي تختزل كل شيء، إنها تشير إلى وداع أبدي، لا أرغب بالانفصال عنهما، عقلي يرفض هذا الوضع لكن لا بد من الذهاب إلى مديرية الاستخبارات التي لا يُرتجى منها أي خير، يا ويلي أنا مُجبر على ذلك.

ما أشحت بصري عنهم حتى خطرت لي اللحظات الأولى التي رأيت فيها البنت الفاتنة التي أصبحت لاحقًا زوجتي، تذكرت لحظة تعارفنا التي لم تدم سوى دقائق، كان ذلك في بداية الحرب العراقية الإيرانية حين كنت أزور صديقي وابن خالها (م.ض) في بيته الواقع في منطقة اليرموك في بغداد، بسبب عملي كضابط في الجيش واسمي غير المألوف ضمن طائفتنا الدينية، اعتقدتْ لأول وهلة أني لست على دينها، ولهذا كان ردة فعلها قاطعة في رفض عرضي عليها بالعودة معي بسيارتي الشخصية الجديدة المريحة من بغداد إلى البصرة

حيث تقيم وعائلتها، لا أخفي أنها كوردة زهرية منكمشة على نفسها حياء وأنوثة وجاذبية قد أثرت بي فورًا، لكن تمنعها القاسي قد أزعجني قليلاً.

كانت فتاة صابئية مندائية في العشرينات من عمرها، قصيرة القامة نسبيًا مستديرة الوجه حنطية البشرة شعرها كثيف أسود، عيونها وهاجة بالذكاء والنبوغ والجمال دائرية كبيرة ذات حدقات سوداء واسعة، نحيفة البنية هادئة الطبع وتتكلم بصوت خفيض، جميلة الطلعة حسنة المظهر ذات ذوق واضح في اختيار ملابسها، ولها ملامح كثيرة تدل على براءة الملائكة، رصينة السلوك متعلمة مثقفة حاصلة على بكالوريوس في الكيمياء من جامعة البصرة، تعمل كمدرسة في معهد البتروكمياويات في البصرة، هي من منحني السعادة الأسرية وحلم الأبوة، كانت قد قدمت من البصرة بصحبة أمها وشقيقها إلى بغداد لزيارة عوائل أقاربهم، زيارتهم أوشكت على الانتهاء وهم يسعون لشراء تذاكر قطار لغرض العودة وها أنا أعرض عليها وهي ترفض.

خرجت فاتنتي بعد أن أشاحت بوجهها عني وذهبت إلى بيت خالها نعمان الذي يجاور بيت صديقي (م.ض)، وهناك من أمها وخالها عَلِمت عني الكثير من المعلومات التي سَرتها وأحدثت تغييرًا جذريًا في موقفها الصادم، لقد أخبروها أني شاب أعزب وأدين بنفس دينها، أنتمي إلى عائلة معروفة وقريبة جدًا منهم، هذا ما شجعها وجعلها تخبرهم بعرضي، رحبوا بعرضي ووافقوا عليه فورًا.

صباح اليوم التالي مبكرًا كُنا قد اتخذنا أماكننا في سيارتي الجديدة نوع تويوتا سوبر كروان، واتجهنا نحو البصرة الفيحاء حيث كنت أعمل في قاعدة الشعيبة الجوية، كانت فاتنتي تجلس إلى جانب أمها في المقعد الخلفي للسيارة بينما كان شقيقها يتربع على الكرسي الأمامي إلى جانبي، سيارتي تسير بسرعة وتنهب الأرض، معنوياتي عالية جدًا مزاجي رائق، بين الفينة والأخرى أسترق النظر إليها من خلال المرآة العاكسة كي أرى وجهها المستدير الذي يشع نضارة وطيبة، هذا يمنحني طاقة كبيرة وزهو أكبر، بين فترة وأخرى تمدني بشطائر

لذيذة كانت قد صنعتها بنفسها، كأنها تسعى لإخباري بمدى قدرتها على الطبخ، أقضمها بشجاعة فائقة بعد أن أشكرها وأكيل لها كلمات المديح.

تخطيت الحاجز الأول دخلت إلى استعلامات المديرية، أعطيتهم اسمي وجلست انتظر، عالم صغير مظلم له قضبان لا يمكن تجاوزها أبدًا، إنها أول مرة ادخل إلى هذا المكان الرهيب الذي يوصف بمقبرة الرجال، وأتمنى أن تكون الأخيرة إن خرجت سالمًا من هذه الورطة، الأفكار تتوارد إلى ذهني ومن ثم إلى لساني، القلق يتملكني والخوف من المجهول يركبني تمامًا.

وحدي أسير نحو قبري وأفكر في نفسي كيف يُعقل أن تقبع هنا ماكينة عملاقة متخصصة بإذلال البشر وآلة كبيرة لتعذيبهم وقتلهم وسط هذه المنطقة الجميلة الخضراء المطلة على نهر دجلة الخالد، وماءه الصافي العذب، والتي لا تبعد كثيرًا عن ضريح الإمام الكاظم، ماذا لو جعلوا منها حدائق ومتنزهات للعوائل البغدادية وعشاق الطبيعة ألن يكون أفضل بكثير؟ غرقت في حيرتي سادت لحظات صمت متوترة ورهيبة مضت كأنها دهر.

أخرجني من أفكاري صوت أحد عُمال ماكينة إذلال البشر؛ مناديًا عقيد عباس فاضل، أجبته بنعم مترددة، نهضت، رافقته، قدماي لا ترغبان بالسير خلفه لا بل يودان السير بعكس الاتجاه ولكن لا مفر من المصير المحتوم، يسير هذا الدليل وأنا كخروف العيد أتبعه نحو المذبح، توقف قرب بناية ليست كبيرة، أدخلني إلى غرفة صغيرة نسبيًا، تركني ومضى.

غرفة التحقيق غرفة صغيرة بسيطة، تنتصب فيها منضدة متواضعة توسطت الغرفة، أريكة طويلة، يجلس خلف المنضدة ثلاثة أصنام كبيرة، على الجدار خلفهم تعلق صورة كبيرة للرئيس صدام وهو يرتدي الزي الكردي، يحمل بندقية طويلة، خلفهُ يظهر منظر جبلي رائع وطبيعة خضراء خلابة، قد تكون هذه الصورة له في زيارته إلى شمال العراق عندما سقطت طائرة ابن خاله وصهره وزير الدفاع الفريق الركن عدنان خير الله طلفاح وقتل على إثرها،

وقيلَ آنذاك أنّ هذا قد يكون من تدبير الدكتاتور نفسه، في الجهة المقابلة للمنضدة وضع كرسي عادي يقابل الأصنام، وعلى ما يبدو أنهم قد خصصوه لي، ما أن دخلت حتى أديت التحية العسكرية، توقفت أستجمع قواي كي أستطيع تكوين فكرة عما يجري.

شبح أسود كبير؛ ما أن وقع بصري عليه لأول وهلة حتى عرفته على الفور، إنه العقيد (م) مدير الشعبة الأولى في استخبارات القوة الجوية، ولكن ما الذي جاء به إلى هنا؟ ألم يكتفِ بما فعله معي قبل فترة حتى جاء هنا ليكمل ما بدأه هناك، يا ويحه...

الصنم الثاني تعلو وجهه العبوس أصلاً تقاطيع حادة غير مُريحة، سهام الشر تكاد تنفذ من عيونه أشعر بها توخزني، كان يجلس متأهبًا بملابس عسكرية خالية من رتب الضباط، أما الصنم الثالث فكان يرتدي ملابس مدنية بان عليه الترف الشديد، كالثعلب ذو نظرات ماكرة يصوبها نحوي أكاد أشعر بأنفاسه تخترق جلدي، طلبوا مني الجلوس على كرسي الاعتراف ففعلت.

أكاد لا أرى شيء حتى وإن نظرت إليهم، أرجلي كسعفات نخيل في مهب ريح ترتجف لا أقدر على التحكم بهما، نفسي مرتابة من الوضع برمته وقلقة، أحاول لملمة نفسي فلا أستطيع، أسأل نفسي لماذا استعراض القوة هذا؟ ألا يكفيهم جلاد واحد؟.

يا هيبل زيوا[1] رُحماك، يبدو أني في ورطة كبيرة لذا التجأ إليك فأَعِني وكُنْ إلى جانبي ولا تتركني فريسة بين فكوك هؤلاء الوحوش، هنا أخذ العقيد الأدغم بتعريفي بهم قائلاً بعد أن طغى عليه طابع الجدية الفائقة وكثير من الخشونة، وبدأ حفل التعريف:

١- ملاك أثري نوراني ، وهو رسول الحيّ، ويُسمى المخلِّص.

– رغم أنك تعرفني ولكن على أية حال أكرر أنا العقيد (م) من استخبارات القوة الجوية، والرفيق ويشير بيده إليه (لا أذكر اسمه ولا أريد تذكره إطلاقًا) من الاستخبارات العسكرية، والرفيق الثالث من المكتب العسكري، وهو مكتب قيادة الحزب الحاكم في الجيش.

ما أن انتهى حفل التعريف الباهت حتى بدأ حفل التحقيق اللعين، استهل العقيد (م) تحقيقه بأسلوب حاد جدًا وبكلام يَسم له البدن:

– عقيد عباس أنت تكلمت مع نائب ضابط عدنان ونهرته بطريقة لا نقبلها، كيف تتكلم معه بهذه الطريقة؟ نحن لا نسمح لك بذلك منك إطلاقًا...

إذًا ظهرت الحقيقة وبانت فصول المسرحية الحزينة التي تدور وتتمحور حول نفس هذا الشبح الذي يُدعى عدنان، من هو هذا الذي يُثير كل هذه الضجة بحيث يقرر بنفخة ريح قلع جذور عميد بشير من منصبه، وزرعه في قبو سجن الاستخبارات إلى أمد غير معلوم، أو قد يكون مدى الحياة، لا أحد يعلم وحتى يمكن أن يطيح بحياته كليًا، وكذلك يجعل من ثلاثة أصنام غاضبة كبيرة كجدار في جهنم تجلس أمامي تَصب جام غضبها عليّ وتحاسبني بقسوة عن بعض الكلمات التي قلتها صدفة إلى هذا العدنان المسخ؟ انعقد لساني وتشتت عقلي، أخذت أُفكِّر بسرعة في كيفية التصرف والرد على هذا الجدار الشيطاني كي أحفظ حياتي، وألا أقع في نفس مصيدة التي وقع بها من كان يومًا ما قائد لمعمل تصليح المحركات.

اتخذت قراري بالهجوم والمواجهة التي هي أفضل وسائل الدفاع وأحسن من وسيلة الاستكانة التي يمكن ان تدفعُ بصاحبها نحو المقصلة، نعم سوف استخدم نفس أسلوبهم الخبيث وسأستغل اسم رأس السلطة المطلقة الرئيس صدام ومقولاته التي لا أحد منهم يستطيع الاعتراض عليها إطلاقًا، سأعيد سهامهم المسمومة نحو نحورهم مستعينًا بقوة الحي الأزلي العظيم وذكائي وقوة حجتي، سأقوم بعملية لبس الأقنعة كما يفعلون هُم وأجسد شخصية أخرى غير

شخصيتي، سأربكهم بحديثي، سأقطع سلسلة أفكارهم، سأحطم ما يضمرون لي من كراهية ونوايا شريرة، سأقوم بتكرار اسم الدكتاتور مرارًا، أعتقد أن هذه الوسيلة الوحيدة التي تستطيع فرملة عجلتهم المخصصة لسحقي وتدميري وبالنتيجة سأفشل خططهم اللعينة، لم أكن أقل جرأة منه، ولم يعد بإمكاني فعل أي شيء سوى التقدم للأمام وقلت:

– نعم سيدي إن ما قلته له أعنيه بكل حرف، ولا زلت أؤمن فيه ويستحقه...

العقيد (م):

– لا نسمح لك إطلاقًا أن تتكلم مع الرفيق نائب ضابط عدنان بهذه الطريقة، مفهوم؟

قالها بقوة لعينة، رفع يده وأشار لي بطرف سبابته الغليظة، ولكني لم أدعه يكمل حرف كلمته الأخيرة حتى أضفت وقد علت نبرة صوتي أيضًا، ولمَ لا، فالموضوع لا يحتمل الهدوء والتفسير، إذ لا منطق يسيطر على الأمور هنا في حضرة الاستخبارات العامة، سأطلق لحريتي العنان وأحرر نفسي من سجنهم، يبدو أن من دعوات العون عند الله قد تحققت واستجاب لصلواتي ومنحني طاقة هائلة وقوة كبيرة ألهمني عزيمة لا تلين فتجرأت القول:

– ومن هذا عدنان الذي تدافعون عنه بهذه القوة؟ أوليس هذا هو نفس النائب ضابط الذي اختبأ في حانوت المعمل لسنين دون أي عمل حقيقي في وقت عصيب على البلد، حين كان الرجال الأبطال أبناء القائد صدام يعملون تحت التراب وبين الأنقاض وركام الحديد والطابوق المنصهر، وفي أجواء الصيف الساخن ويخوضون حرب إعادة الإعمار... يا سيدي لقد عملنا المستحيل كي ننهض بالمعمل من جديد بعد أن قررت قيادة القوة الجوية تسقيطه نهائيًا، الرئيس القائد صدام حسين أصدر أمر لجميع العراقيين بالعمل لإعادة إعمار العراق، ونحن نعمل بأمر أبينا القائد حفظه الله ورعاه، وها نحن ببساطة نصبح

ضحية من يجلس في الظل ويتخصص بكتابة التقارير الظالمة ضد الأبطال، هل هذا ما يريده المسؤول الأول في بلدنا العراق؟.

هنا ترائت لي عيون ابني زيد وابنتيّ هند وفرح وبرائتهم ونظرات عيونهم الحانية، تذكرت كيف كنا نلهو سويًا في ماء حوض حمام بيتنا الوادع، حين يمدون يد العون لي في قضاء بعض الأعمال المنزلية البسيطة ومنها أعمال الزراعة في حديقتنا الغناء، كُنا نجلس على الأرجوحة وأفتعل أنواع المقالب والمُزاح معهم، أعيد شريط ذاكرتي ولحظات سعادتهم حين أفاجئهم ليلاً بالتوجه معهم إلى منطقة الكرادة الراقية كي يحصلوا على الأيس كريم المُميز واللذيذ، من محل المرطبات الشهير الذي يدعى (الفقمة)، والطريف في الأمر هو أني كنت قد عقدتُ اتفاقًا مُسبقًا مع ابنتي الصغرى فرح حول مفاجأة الآخرين بزيارة محل مرطبات الفقمة ليلاً، إلا أنها كانت أكثر المندهشين حين أخبرتهم بالموضوع، بدت وكأنني لم أتفق معها، هذا ما دعانا إلى التندر عليها ولحد الآن، أتذكر زياراتنا الحميمة الرائعة إلى بيت أهلي وأحاديث والديَّ الحانية الشيقة مع أولادي، أمسياتنا البديعة التي كُنا نقضيها مع عائلة زوجتي، أغنية المطربة الخالدة أم كلثوم (لسه فاكر) التي نرددها جميعنا في طريق عودتنا ليلاً حين يصدح مذياع سيارتي بها...

صوت غليظ أجش ثقيل يصدر عن هذا الدب الأسود يقطع أحلامي الجميلة يفيقني ويعيدني إلى واقعي الأليم... العقيد (م) بعد أن استشاط غضبًا:

– هل أنت تدافع عن عميد بشير أم ماذا؟ هل تدافع عنه لأنه من دينك؟

المرء لا يجلس بانتظار السعادة كما يقولون، لذا فأنا لن أجلس دون إجراء مناسب بانتظار شفرة المقصلة تندفع نحو رقبتي، وأهبُ قائلاً:

– أنا لا أدافع عن قائد المعمل بالذات، ولكني أدافع عن الحق والعدل وعن الإنصاف، إن من يعمل بوطنية وحرص على بلده لا يجب أن يُكافأ بهذه الطريقة، وهذا ما قاله السيد الرئيس القائد صدام حسين، اعملوا وتجاوزوا

الروتين ولا تخافوا، يا سيدي أنا أقصد كل كلمة قلتها لنائب ضابط عدنان وأنا مسؤول عنها.

أحسستَ لأول وهلة أن هجومي المقابل العنيف المباشر والمستند إلى أقوال رأس العائلة أو القبيلة الحاكمة قد أتى بأُكُله، وقد ينقذني من براثن هؤلاء الشياطين الذين تجمعوا لينهشوا لحمي نيئ، لقد كان هذا درس قاس وخطير في مواجهة السلطة وعدم الاستسلام، ركبت موجته بقوة ودون حساب، إذ أن الأمر أصبح سيان بالنسبة لي.

يتدخل الصنم سيء المزاج الذي يرتدي بدلة مدنية في الحديث بعد أن توسعَت عيناه، بحيث أصبحتا كعيني قرش وقت انقضاضه على فريسته، بدا مترعًا بالحقد الأصفر، ينظر إليَّ شزرًا صابًا جامَ غضبه عليَّ بعصبية واضحة قائلاً:
– اسمع عقيد عباس لا يحق لك محاسبة الرفيق عدنان كونه يكتب لنا تقارير حزبية، لأنه يقوم بواجباته الحزبية على أكمل وجه، ونحن نشجعه لأنه ينقل لنا الحقيقة، ونطلب منك ولأخر مرة ألا تُكرر ما قمت به.

يبدو أني عالق في هذه الفوضى حتى قمة رأسي، وأن ما يحدث لا يبعث على الشعور بالطمأنينة، لذا عليّ ألا أصاب بالذعر، وأن أحافظ على رباطة جأشي، لقد فات الأوان للتراجع فلا خط عودة بعد الآن ولن أستسلم أبدًا لهؤلاء الغربان...

– نعم سيدي نحن ننفذ ما يقوله السيد الرئيس القائد، ولا أعتقد أن أمر يمكن أن يعلو على أوامره، وماذا يحصل؟ هل ما يحصل الآن هو ما يريده الرئيس القائد حفظه الله ورعاه أم ماذا؟.

الصنم الثالث من مديرية الاستخبارات العسكرية العامة الذي بدا غاضبًا من كلامي يحدقُ بي بعيون ثور جريح، يزم شفتيه بقوة يلوي رأسه كأنه يريد أن

يطلق نداء يوم بعث الخلائق للحساب، ثم ينظر نحوي بطريقة تجعل المرء يشعر كأنه أصغر من ذبابة ويضيف بصيغة حاقدة:

– والآن انصرف لدقائق... انتظر خارجًا حتى نطلبك ثانية.

استندت على حافة الكرسي بيدي اليمنى بتثاقل ونهضت، أحاول تحريك قدمايّ اللتان التحمتا بقوة في أرضية الغرفة، لم يرغبا بطاعتي رفعتهما رغمًا عنهما وخرجت أخيرًا انتظر قدري الذي سيخرج من أفواه الجلادين الثلاثة، ثوان ثقيلة مرت لحقتها دقائق مُرَّة، ساقايّ لا تسعفاني الوقوف أكثر، أكاد أهوي على الأرض التي أتمنى أن أفترشها وأنفذ في نوم أبدي ينسيني هذا العذاب.

ما الذي يدور في داخل تلك الغرفة المشؤمة! بماذا يتحدثون الآن! إلى ماذا سيصلون؟ هل سيصدرون حكمًا بالإعدام؟ إذ ليس في قاموسهم عقوبة أقل وطئة من ذلك، أم سيرسلوني إلى الأسفل كي أكون رفيقًا لتسلية المسكين قائدي في زنزانته النتنة، اللعنة عليهم وعلى قراراهم وليكن ما يكن، لكن لا بد لي أن أُفكِّر بطريقة إيجابية كي أستطيع أن أتحكم بالأمور بشكل أفضل، على بُعد أمتار ليست كثيرة تسير حمامة ذات لون رمادي يتخلله لون أبيض ناصع، تنقر بعض فتات الخبز من الأرض وتطلق أصواتًا مألوفة تريح أعصابي، وترحل بي إلى يوم حين ألَح ابني البكر زيد عليَّ بالذهاب إلى سوق الغزل الشهير حيث تُباع جميع أنواع الطيور العادية منها والنادرة، القطط وأسماك الزينة وكذلك أنواع الدجاج وحتى الحيوانات الغريبة مثل أنواع السحالي، استقلينا سيارتي بعد أن اصطحبنا ابنتي هند التي رغبت كذلك في ولوج أسرار هذا المكان الذي يأمهُ الكثير من البغداديين كل يوم جمعة.

توجهنا نحو سوق الغزل الوقع في شارع الجمهورية قرب جامع الخلفاء التراثي الأثري الذي بناه الخليفة "علي المُكتفي بالله" في بداية القرن الميلادي التاسع، والمشهور بمنارته الجميلة الشاهقة، ابتعنا عدة أسماك انتقاها زيد بنفسه كي يضيفها إلى مجموعته الكبيرة التي يحتضنها حوض أسماكه الجميل، حيث

ينتصب ويُزين أحد أركان غرفة معيشة بيتنا المليئة بدفء مشاعرنا، تذوقنا شرائح الجُمّار ذات المذاق اللذيذ وهي المادة البيضاء الموجودة في قلب فسيلة النخيل الصغيرة، ابتعنا كذلك بعض مستلزمات تزيين حوض أسماكنا، كانت سعادتي لا توصف برفقة أبنائي حين كنت أرى توهج وجوههم فرحًا برؤية أسماك الزينة المختلفة ذات الألوان الرائعة وامتلاء أنفسهم بالسرور.

تمتعنا بقضاء وقت ممتع في مشاهدة العديد من الحيوانات مثل الأفاعي الملونة والكلاب وبعض قرود الغابات وغيرها، لقد كانت حقًا رحلة موفقة مثيرة وممتعة عدنا على إثرها إلى بيتنا الدافئ المليء بالحب والحنان، بلهفة كانت تنتظرنا زوجتي الحبيبة مع غداء مميز من السمك المشوي، صوت أجش لا يمت للعنصر البشري بأي صلة يقطع سلسلة أفكاري فجأة مناديًا بخشونة: "والآن ادخل"، وكان أحد الأصنام الثلاثة.

اتخذت مجلسي على نفس كرسي المسكين وعيوني تتطلع بصرامة بالغة إلى قرارهم اللعين، حتى نطق أحد الجلادين بحقد بائن وعيون تقدح شررًا قائلاً:

– كي تعلم أننا لا نسمح لك إطلاقًا أن تدافع عن عميد بشير كونه من دينك، ولا نقبل أن توجه أي نقد إلى الرفيق النائب ضابط عدنان كونه كتب تقرير حزبي صحيح، أو تحاسبه أو حتى تكلمه لاحقًا على أي شيء، ولقد اتخذنا بحقك قرارًا بعقوبتك بقطع راتبك لمدة ثلاثة أيام مع عدة قرارات أخرى ستعلم بها لاحقًا، ونحذرك للمرة الأخيرة سوف لن نتهاون معك إن فعلت شيء مشابه آخر، والآن اذهب.

أخيرًا قال خيال المآتة كلمته بعد أن كان يُشدد على كل نهاية كل حرف من كلماته القاسية التي كسهام جارحة كانت تخرج من فمه تنغزني وتؤلمني، أقول في سِري لقد انتصرت عليهم ونجحت خطتي، لقد أربكت هجومهم لذا لم يرسلوني إلى الأسفل إلى تحت سطح الأرض إلى سجن الحوتة، رغم أني انزعجت جدًا من العقوبة التي ستوقف ترقيتي إلا أني فرحت كثيرًا كوني لعبتُ

دور سينمائي أجدته بكفاءة واقتدار، لم تثرني ردة فعلهم المشؤومة، إذ لا يمكن خروج إنسان صالح من رحم شيطان أو إبليس.

هكذا انتهت مقابلتي مع جدار الجلادين في مديرية الاستخبارات العسكرية العامة، ولم أكن أفقه حينها ما الذي قد حدث بالضبط، لاحقًا وبعد أن استوعبت الموضوع استطعت التوصل إلى نتيجة هي أني كنت كضحية أمثل أمام إما محكمة عسكرية حزبية مشتركة، أو مجلس تحقيقي مشترك لتلك الدوائر البغيضة الثلاث، نهضت ألعنُ سر الزمن ولم أصدق أني خرجت من تلك الغرفة الخانقة سالمًا، وما يزال رأسي باقيًا فوق جسدي.

بماذا أخبرتي تلك الحمامة! هل كانت إشارة بُعثتْ لي من السماء لتمنحني الطمأنينة وتعلمني بالنجاة! لا أعرف وقد تكون كذلك لا أستطيع الجزم، إنها فعلاً أحدثت في نفسي تأثير حسن، لكن ما هي إجراءاتهم وقراراتهم الأخرى التي ستصدر ضدي، وكيف سيكون تأثيرها، هل ستكون قاسية جدًا! لا أعرف لكن المهم الآن أن أذهب إلى بيتي كي أرى زوجتي وأولادي وأطمئنهم.

خرجت من مديرية الاستخبارات العسكرية العامة مطحون مهموم ولكن حيّ مرفوع الرأس دون أن أخفض لهم جناحي الذُل, دارت في خاطري فكرة واحدة هي أن الحي العظيم أنقذني بعد أن منحني القوة والقدرة على مجابهة حقدهم وشرهم العظيم، سأجلس وأنظر إلى عيون أولادي كي تتبددُ مني هموم الدنيا ويتلاشى ببرائتهم تعبي، تلك الليلة نمت طويلاً عميقًا؛ ليس بفعل السكينة بل رضوخ للألم والتعب النفسي واحتفال بالنجاة.

لم يمضِ سوى يومان حتى صَدر أمر عسكري بنقلي من منصب قائد جناح التصليح العام إلى شعبة السيطرة النوعية، وتنصيب المنسق العام لعملية إسقاط القائد وإسقاطي وهو الرفيق المقدم المهندس (ح.ف) بدلاً عني.

هذا أول الغيث وما القادم لا أعرف، على أية حال قد فقدت كل قناعتي منذ الأيام الأولى لحرب بوش بالنظام القائم والسلطة القائمة والحزب الحاكم، وكل ما يتعلق بمنظومة الدولة، وأن ما جرى الآن يأتي دليلاً أكيد على صحة رأي المُسبق الذي كونته إثر الحرب العالمية على العراق عام ١٩٩١م.

لقد اتخذت قراري النهائي والحاسم... لن أحرك إصبع واحد من يدي لعمل شيء مُفيد لهذه السلطة الباغية، سأسعى إلى أن أخرج تمامًا من أجواء الحقد الخانقة هذه، نعم سأقدم طلبًا لإحالتي على التقاعد وأفعل المستحيل كي أخرج من هذا الجيش وقوته الجوية، فلقد عزفت نفسي عن العمل في هذا المجال الذي طالما كان حلم حياتي...

اللعنة على الظالمين في كل مكان وزمان، لن أعمل إطلاقًا لهذه المنظومة العفنة، لن أبقى في هذه المؤسسة التي فقدت جميع مستلزمات حياتها، سأقبل حياة الانزواء في شعبة السيطرة النوعية التي هي عبارة عن غرفة صغيرة واحدة وتضم جندي مكلف واحد وسأسعد بتواجدي فيها كي أحقق ما أصبوا إليه من قراراتي الجدية والحاسمة، لن أتراجع عن قراري إطلاقًا حتى وإن كلفني ذلك حياتي...

سأدير الأمور بطريقتي الخاصة كي أصل إلى مُبتغاي دون خسائر جسيمة... لكني سأكون حذر جدًا إذ أن خوفي من بطش الحكومة وأذرعها كان مبررًا... سأخطط بذكاء كي أجعل من خطتي المستقبلية فاعلة وقابلة للتنفيذ مثلما مضيتُ في سنوات عملي معهم دون خسائر تُذكر، أعلم أني سأسير على حافة السكين ولكنني هكذا قد حسمت أمري، وبالتأكيد سيكون الله في جانبي.

بعد أيام قليلة بفرح غامر يرسل العميد التكريتي قائد المعمل الجديد بطلبي كي يعلمني بقرار المحكمة المشتركة أو المجلس التحقيقي المشترك، وهي عقوبة قطع راتبي لثلاثة أيام صادرة من وزير الدفاع، بمرارة كبيرة وأسى أكبر أمضيت أوراق عقوبة قطع الراتب في حين رأيت علامات التشفي واضحة

على مَحيا العميد التكريتي القريب جدًا من رئيس الوزراء العراقي السابق المشهور بلقب (أبو فرهود)[1]، الذي أطلقه عليه الشعب العراقي لاتهامه بسرقته أموال الدولة.

خطة الأشرار تسير بإحكام وبنودها تُنفذ واحد تلو الآخر بسلاسة بالغة، كأوراق الخريف يتساقط الضباط المندائيون تباعًا، أولهم العميد قائد المعمل تمَّ زجه في سجن ما يُطلق عليه (الحوتة) داخل الاستخبارات العامة، حيث يبقى السجين مدة لا أقل من ثمانية أشهر دون أي تحقيق أو محكمة أو غيرهما.

إن تسمية الحوتة هذه جاءت تشبهًا ببقاء النبي يونس (عليه السلام) لثمانية أشهر داخل جوف الحوت الذي التقمه، أليس من الغرابة أن يُطلق على هذا السجن البائس اسم لمكان إيواء نبيٍ من أنبياء الله اشتهر بالإيمان والتقوى، أما الضابط المندائي الثاني وهو أنا فلقد تمَّ تنحيتي عن منصبي وإصدار عقوبة ظالمة بحقي من وزير الدفاع العراقي (علي حسن المجيد ابن عم الرئيس صدام) شخصيًا، ويبدو أن الأمر لن ينتهي على هذا الحال، تبًا لهم ولجميع إجراءاتهم المجحفة والحاقدة.

اقتنعت بقدري المحتوم وأخذت أمارس حياتي بهدوء مطلق، أجلس في غرفتي الصغيرة أُفكِّر في جميع الأمور اللامنطقية التي تجري من حولي أحاول لملمة نفسي والتخطيط للمستقبل، استغلالاً للوقت الطويل دون أي عمل مُثمر، أخذت اقرأ بعض الكتب ساعدني بتأمينها الجندي المكلف (مصطفى).

:- أبو فرهود: وهو لقبٌ أطلقه الشعب العراقي على الفريق (طاهر يحيى) رئيس وزراء العراق إبان حكم الرئيس عبد السلام عارف ١٩٦٣- ١٩٦٥ وكذلك إبان حكم الرئيس عبد الرحمن عارف ١٩٦٧- ١٩٦٨ كما إنه شغل العديد من المناصب الحساسة الأخرى. ولُقبَ بأبي فرهود اعتقادًا من الشعب العراقي بأنه كان يسرق أموال الشعب. والفرهود: كلمة أطلقها العراقيون على أعمال العنف والنهب التي نشبت في بغداد بالعراق واستهدفت سكان المدينة من اليهود في حزيران عام ١٩٤١ خلال احتفالهم بعيد الشفوعوت اليهودي، وحاليًا يطلقها العراقيون على كل أعمال النهب والسرقة.

مصطفى هو جندي في خدمته الإلزامية يسكن في ضاحية اليرموك الراقية في بغداد، شاب في مقتبل العمر متعلم مثقف ذو طلعة جميلة وأدب رفيع، بوضوح بائن تظهر عليه آثار الترف والغنى والمعرفة كونه ينحدر من أسرة عريقة، والده ضابط متقاعد في الجيش العراقي برتبة لواء يمتلك مكتبة كبيرة فاخرة في بيته، يبدو أن مصطفى وبعد أن علم بجميع الأمور التي تحيط بي والتي لم تعد تخفى على أحد في وحدتنا العسكرية، يبدو أنه تعاطف معي، علمًا أني كنت أكنّ له كبير الاحترام والمعاملة الطيبة، وبعد أن حصل على موافقة والده اللواء في إعارتي كتبه الثمينة بدأ يجلب لي عدة كتب كل أسبوع أقوم بقرائتها طول وقت الدوام الرسمي والإجهاز عليها، حتى يقوم مصطفى بجلب مجموعة أخرى، وهكذا استمر الحال لمدة سنتين لغاية تحقيقي الكامل لخطتي، استطعت خلالها قراءة الكثير من كنوز الأدب العالمي والعربي، لقد ساعدتني القراءة في تخطي حالة الجمود النفسي الذي تعرضت له، وكذلك في بلورة أفكاري ورسم خططي المستقبلية.

مرت الشهور، مرت ثقيلة كأنها دهور، القائد ما يزال في سجن الحوتة في مديرية الاستخبارات العسكرية لا أحد يعلم بوضعه، والده وإخوته يبذلون قصارى جهودهم كي يحصلوا على معلومة حتى وإن كانت صغيرة تفيدهم في اتخاذ إجراء ما، الوضع في المعمل كمرجل يغلي ويزداد توتر إذ بدأت مديرية الاستخبارات العسكرية في إجراء التحقيق الشامل في قضية القائد، وهذا تطلب استدعاء العديد من الضباط والنواب ضباط الذين وصل عددهم إلى سبعة وعشرون شاهد إلى الاستخبارات العامة للإدلاء بشهاداتهم، الجميع يداهمهم شعور الإحباط والقنوط واليأس والخوف.

للمرة الثانية تمَّ إبلاغي للحضور إلى مديرية الاستخبارات العسكرية لغرض التحقيق، كيف هذا بحق الجحيم! كيف اقتحمت هذه الكلمة سيئة الصيت (الاستخبارات) حياتي بهذه البساطة! تصاعدت هواجسي، ازداد قلقي، تشوش

فكري وركبني الخوف من جديد وخيم الحزن والقلق مرة أخرى، طرق في ذهني سؤالٌ مُحيِّر: لماذا يتم التحقيق هذه المرة في المساء، هل ستكون له إجراءات أو عواقب جديدة ليست كالسابقة منها؟ هل يمكن أن تكون إحدى طرقهم الجهنمية لإيداعي في إحدى أقبيتهم السحيقة.

ألف سؤال وسؤال تتوارد إلى نفسي دون أية إجابة لأيٍّ منها، الشيء الوحيد الذي أؤمن به أنه لا يمكنني أن أهرب من قدري، سأواجههم بإيمان مطلق بالعدالة الإلهية وثقة ببرائتي لا تتزعزع، لم أفعل شيء يخالف القوانين سواء كانت السماوية منها أو الوضعية، لذا سوف أسمح لهم بالنيل مني رغم وحشيتهم ظلمهم وحقدهم، سأعتمل لُج ظلمهم بصدر عامر متحصن بدعوات زوجتي ونظرات أبنائي البريئة وأنتصر عليهم، بعد انتهاء الدوام الرسمي عدت إلى بيتي مهموم مكروب مكتئب وحزين، أخبرت زوجتي بتجدد الموضوع فهانت وانزعجت وأخذت تضرب أخماسها بأسداسها دون أية فائدة.

مساء ذلك اليوم الكئيب والقمر ساطع يسر الكون بنوره الذهبي؛ ارتديت زيي العسكري دون عزيمة أو مشيئة، كَفّا زوجتي تمسحان كتفي بحركات هادئة تفيض حنان أشعر باهتزازهما ورجفاتهما، ترقبني بعينين حانيتين وقلب مُلتاع، قبلت جباه أبنائي واحتضنت زوجتي بعد أن أوصيتها بكل تفاصيل حياتي ومتعلقاتي، شيعتهم بنظرة المفجوع بكارثة التي فتحت في عقلي باب إلى التفكير والقلق والدعاء، وانطلقت إلى قدري أستجير بالله من غدر الزمان.

نزلت الشمس خلف الأفق وسادت العتمة الكون، أجلس خلف المقود أسير بسيارتي وقلبي يخفق بشدة، فجأة تستعيد ذاكرتي نشاطها بقوة فيترائى لي شريط التحقيق الأول في نفس المكان ونفس المديرية، فيزداد قلقي ويتملكني الخوف إذ أني لم أكن أعرف أني سأعود إلى بيتي سالمًا أم قد يمكن أن تبتلعني حوتة الاستخبارات، حيث إنّ الفاصل بين الظُلمتين في داخل السجن وخارجه خيط رفيع فالأقدار والظروف لا تفرق بين واحد وآخر في هذا الشأن.

كان التحقيق هذه المرة يتركز على قضية القائد، وتحديدًا حول قضية الإساءة لسمعة الدولة وسياستها العليا، ولكن ما الذي يمنعهم من اتهام البريء وجعله مجرم في ثواني معدودات أو حتى إعدامه، المرء يحتاج إلى الوقت كي يتمالك نفسه ويعود لاتزانه.

ما أن دخلت مديرية الاستخبارات العسكرية حتى رأيت مجموعة من ضباط المعمل، وكذلك جمهرة كبيرة من المراتب الذين ينتظرون دورهم للإدلاء بشهاداتهم، وبدا لي كأنه حفل تحقيق جماعي، وهذا ما خفف من قلقي واضطراب الجميع، كأننا في يوم الحساب، جلسنا ننتظر دورنا كي ندخل عالم الأنوار أو نُرسل إلى جهنم وبئس المصير، عيون الجميع تائهة كعقارب ساعة تهتز دون نظام، تتحرك وتنظر إلى بعضها متسائلة ما الذي يحصل ومن المستفيد من كل هذا؟ ولماذا هَدر أعصاب وطاقات كل هؤلاء الناس؟.

أنا في أسوأ حال من بينهم جميعًا، وكما يقال إذ بجرة قلم بسيطة يمكن أن أهوى سريعًا نحو الأسفل إلى سجن الحوتة حيث يوجد قائدي، تنتابني مشاعر سلبية وأحاسيس مريعة تعبث بكياني، مشاعر هادرة بالغضب والقهر، الغيظ وقلة الحيلة، أمدُ يدي أرفع رأسي نحو السماء وأنادي ربي أستغيثُ به، لدي العزم وعليّ إتمامه، ينبثق عزمي من إحساس عميق بالحزن على صديقي القائد وغضبي عليهم لما فعلوه بي، لي رغبة في الانتقام ولكن كيف السبيل!، خيم السكون بانتظار عاصفة التحقيق.

نادى عليّ أحدهم وطلب مني مرافقته إلى إحدى غرف التحقيق، تبعته دون أن أنبس بكلمة واحدة، جلس ضابط التحقيق مُتجهم مُكفهر الوجه رغم وسامته، ويبدو أن الابتسامة قد فارقته من زمن بعيد، وأمامه كدس كبير من الملفات والأوراق الخاصة بالقضية، لحظات من الرهبة والخوف، احتوتني هالة من الرعب والتوجس، يبدو أن الماضي يلاحقني بخبث كبير، ودون أي تمهيد أو أي إضاعة للوقت بدأ يوجه أسئلته لي...

تعلمت أن ألعب ضد قواعد الزمن، ولهذا لزم عليّ أن أكون حاسمًا موجزًا في إجابتي، ولكن جابهتني معضلة كبرى ألزمتني على التفكير مليًا، وأخذت من طاقتي الكثير، وكي لا أقع في نفس الفخ الذي نصبوه بإحكام للقائد، وفي نفس الوقت كي لا تكون شهادتي موجهة بالضد من قائدي، كان عليّ وكما يقول المثل أن ألعب على حبلين رفيعين جدًا، وألا أقع عن أي طرف منهما، لكن ماذا سأقول حين أسأل عن معلوماتي حول حديث القائد آنذاك فيما يخص أموال التصنيع العسكري؟.

عند التأكيد على تواجدي مع القائد والضباط الآخرين، وإنكاري لحديثه في ظِل تأكيد شهادات الضباط الآخرين على صحة حديث القائد؛ فلسوف أتهم بالكذب وتزوير الحقائق والدفاع عن شخص يُسيء لسمعة الدولة، وقد يزج بي كالقائد في سجن الحوتة، لا سيما وأني كنت أيضًا مستهدف بمخططهم الشرير، والوضع لا يرحم في حضرة الاستخبارت ولا في المحاكم الخاصة، والعكس في حال تواجدي والتأكيد على سماعي لحديثه فلسوف أطعن به مباشرة، وهذا ما لا أسير خلفه ولا أريده إطلاقًا، ماذا بقيّ لدي من خيارات كي أنفذ من هذه المعادلة الظالمة سالمًا ودون الإضرار بالقائد، لقد بقيّ لي أن أقول إني لم أكن أتواجد في تلك اللحظات وبذلك أنفذ من شَر الظُلمتين، ولهذا قررت أن أقول إني كنت غير متواجد في موقع الحدث.

ضابط التحقيق يرقبني بعيون أقرب إلى عيون الغراب:

– عقيد عباس هل سمعت العميد قائد المعمل يقول كلام عن هدر أموال التصنيع العسكري في أولى أيام العدوان الأمريكي على بلدنا؟

– كلا لم أسمع أي من هذا الكلام...

ضابط التحقيق ذو قلب الصوّان بلهجة آمرة ومُحتجة:

– كيف لم تسمع وأنت كنت معه وتقف على مقربة منه أثناء الحادث؟

سأدافع عن نفسي حتى الرمق الأخير، وأضيف بعد أن تصاعدت نبرة صوتي دون إرادتي قليلاً:

– لم أكن أصلاً موجود في موقع الحدث، إذ أنني وبعد أن قام القائد وبقية الضباط وأنا من ضمنهم بجولة حول المعمل، ذهبت إلى وحدتي كي أتفقدها وأقوم بإخلاء المعدات الصالحة للاستخدام وفق أوامر القائد إلى خارج المعمل، وبعد ذلك حصل أن قامت الطائرات الأمريكية بقصفنا، فما كان منا إلا أن تركنا المعمل على عَجل.

ضابط التحقيق بعد أن يطلق زفير عميق يدل على عدم الرضا وبمكر ذليل وخداع كبير يقول:

– بعض الشهود قد أكدوا على أنه قد قال كلام يُسيء للتصنيع العسكري وسياسة الدولة العليا...

انظر إليه ثم أشيح بنظري إلى صورة مُعلقة على الحائط خلفه، يظهر فيها الديكتاتور رافعًا يدهُ اليمنى مُحييًا الجماهير المنافقة الغفيرة، التي بَدت تهتف له وتأزره، تدعمه وتُقبل يديه، تستعطفه، تتملقه وتدعو له بالنصر كي يقهرهم أكثر فأكثر، وها أنا أجلس أمام آلته البشرية التي لا ترحم، تفترسني وتتمنى سحقي كنملة لا تستحق الحياة على وجه هذا الكوكب، احتوتني هالة مزيج من الرعب والرهبة والعناد وبتحفظ شديد ومكر متعمد قلت:

– لم أكن موجود ولا أستطيع أن أقول غير الذي رأيته بعيني وسمعته بأذني...

ضاقت نفس ضابط التحقيق الذي تطغي عليه نزعة الشيطان، أضاف:

– ألم تسمع من بقية زملائك الضباط أنه قد صرح بمثل هذا الكلام؟

أجيب بيقظة واقتضاب حذر:

– كلا لم أسمع...

ضابط التحقيق يتطاير الشرر من عينيه وتابع كلامه بعد أن فقد صبره:

– هل لديك أقوال أخرى أو أية إضافة؟

هنا خرجتُ من صمتي وأطلقت لحنجرتي العنان وبدأت العزف بمفردي قائلاً:

– نعم أنا أريد القول إن القائد كان هو من اتخذ ونفذ قرار إعادة إعمار المعمل بعد أن قررت قيادة القوة الجوية تسقيطه وإخراجه من الخدمة، لعدم توفر الجدوى الاقتصادية، أنا اعرف القائد جيدًا، إنه ضابط مخلص، مهندس كفء، وإنسان وطني ولا يمكن أن يخرج منه مثل هذا الكلام.

ضابط التحقيق يرمقني بنظرة صفراء حاقدة ويقول:

– وقع على أقوالك...

بسرعة نقشت إمضائي على أوراق شهادتي، رفعت ما تبقى من هيكلي الثقيل، نهضت أحتضن ألمي الصامت على عجل شديد خوفًا من أن يغير رأيه ويُحيل صفتي من شاهد إلى مُتهم كما حصل سابقًا، على عجل خرجت مُتجهًا إلى الباب الرئيسي فرحًا بنجاتي الثانية، وألعن كل عُطُّل من فاز بمنصب في ماكينة إخصاء الرجال هذه، يصول ويجول بمصائر البشر يقودهم كالخراف ويذيقونهم أنواع الذل والمهانة، عند البوابة التقيت بصديقي العميد (ع.ا) الذي بدوره أيضًا قد أدلى بإفادته حول نفس القضية.

ألقيت بجسمي الذي أصبح فجأة ثقيل جدًا في سيارتي نوع فولكس واكن، ذات اللون الرصاصي، أدرت محرك السيارة وقفلت عائدًا إلى بيتي، شعرتُ أن الشياطين تتقافز من حولي تحاول عرقلة حركتي وإيقافي بعد أن أفلت من شبكة صيد إبليس الأكبر.

حمدت السلامة لنفسي وقلت لا بد إنها أخر زيارة لي لهذا المكان الرهيب، لجُ الليل وشدة ظلمته تسيطران على الكون، أسير أحاول السيطرة على سيارتي ونفسي وحركاتي، أركز في الطريق كي لا أقع في حادث قد أذهب أو غيري ضحية له، انظر من خلال الزجاج الأمامي للسيارة فتتراقص أمامي أضوية

علامات المرور الملونة، أحدق في اللون الأخضر الفسفوري الذي ينقلني إلى عالم رائق عالم المشاعر الصادقة والحب العذري إلى عام ١٩٨٢، حين عُدت مع فتاتي الجميلة وعائلتها إلى البصرة الفيحاء، أوصلتهم إلى عتبة دارهم، أفرغنا أغراضهم من سيارتي، شكروني كثيرًا، دعتني أمها الطيبة؛ المرأة ذات القلب المعطاء النقي، التي أصبحت لاحقًا عمتي؛ إلى تناول طعام الغداء معهم، بلطف كبير اعتذرت منهم كي ألتحق بوحدتي العسكرية ووعدتهم بزيارة لاحقة.

من هنا بدأت حكايتي مع زوجتي الحالية، أخذت أزورهم بين الحين والآخر، توطدت علاقتي بعائلتها وأخويها الأصغر اللذان كانا ما يزالان يدرسان في مرحلتهما الجامعية حتى اتضحت ملامح علاقتنا، أزورهم في بيتهم حين يتصاعد الشوق والحنين إليها، أحيانًا وحين تحين فرصة الانفراد نتحدث عن بعض الأمور في حينها تغوص كلماتنا مثلما تغوص أشواقنا في متاهات قلوبنا.

حان وقت سفرها في بعثة إلى الاتحاد السوفيتي، وكان يلزمها مبلغ من العملة الأمريكية، لذا استعانت بي وقد تكون استغلت هذا الموضوع كفرصة للاتصال بي، أبديت كامل استعدادي لمساعدتها وزملائها، أردت أيضًا استثمار هذا الموضوع لزيارتها ومقابلتها على انفراد، أخذت إذنًا من قائدي استقليت سيارتي العسكرية وأمرت سائقي بالتوجه من قاعدة الشعيبة نحو مكان عملها في معهد البتروكيمياويات في البصرة.

دخلت المعهد مزهوًا بزيي العسكري ونجماتي الذهبية، طلبت مقابلتها فدلوني على مكان تواجدها، انتظرت في قاعة المدرسين حيث تجمع حولي الكثير من زملائها الذين أبدوا كرمًا بصريًا مشهودًا، كانت هي مشغولة في المختبر في تدريس طلبتها الشباب، انتهت حصة الدرس فدخلت يسبقها عطرها الفواح وطلتها الرائعة وجهها الدائري المشرق بألوان زهرية تطغي عليها ابتسامتها التي زادتها جمالاً وتألقًا، ألقت التحية عليّ فاستقبلتها ناهضًا مادًا لها كِلتا يديّ اللتان احتضنتا كعصفور يدها الباردة الطرية، لم أرغب وقتها أن أترك يدها

البضة الناعمة، كنت أود لو دام هذا الاحتضان دهرًا كي أنعم بحنان ورقة بشرتها السمراء الصافية، كنت أشعر بنبضها الثائر يتحد بنبض قلبي ليكونا لحن الخلود.

ضغطت على الفرامل توقفت السيارة داخل جراج بيتنا، على عجل ترجلت منها، كانت زوجتي تنتظر على أحر من الجمر بعد أن نام أبنائي جميعًا، ما أن سمعت صوت محرك السيارة حتى هرعت إليّ والخوف يتراقص في عينيها، فتحت باب المطبخ بلهفة، احتضنتني كلقاء العائد من الموت بقوة، قبلتها من جبهتها الباردة احتويتها بقوة ربتّ على كتفيها كي أهدئها وأطمئنها، شعرت برجفان يديها حتى كدتُ اسمع نبضات فؤداها تشق الآفاق، حدقات عيونها تملأها الخوف، دخلنا إلى البيت أقفلنا الباب من خلفنا، بعد استراحة قصيرة رُحنا في حديث حزين عما جرى، وقالت إن الله قد أشفق إلى ما آل إليه حالنا، إذ أني لم أكن أتوقع عودتك، وبمَ أستجير من غدر الزمن والأشرار، تحدثنا كثيرًا ثم غطسنا في بحر أحلامنا، لقد ضاقت بنا الحيل وكان علينا أن نذعن للمحتوم.

كانت مُطالعة الكتب سلواي، غايتي وقاتلة غربتي، إذ كنت ألتهم الكتاب من الغلاف إلى الغلاف دون أي هدنة، أجهز عليه بالتمام لأبدأ بالتالي، وهكذا استمرت حياتي في المعمل دون أي عمل حقيقي، علمًا أني لم أنسَ تنفيذ خطتي التي بدأت معالمها تتضح.

يبدو أن دعوات وصلوات أمي السابقة لم يتوقف مفعولها، وأن الله عز وعَلى لا يتخلى عن مساعدتي وحمايتي إطلاقًا، كنت غاية في الثقة من اتخاذي القرار الصحيح، وأن شيء جيد سيظهر في نهاية الأفق وستحدث المعجزة.

غاية في الصدفة اطلعت على كتاب رسمي صادر من القيادة العامة للقوات المسلحة، والذي كان يتضمن إمكانية العسكري دون تحديد الرتبة العسكرية أن يطلب الاستقالة من الجيش دون راتب تقاعدي، لقد جاء هذا الأمر كغيث من

السماء وقع عليّ، استثمرته بأفضل طريقة وجاء بنتيجة باهرة وأحدث طفرة نوعية كبيرة في مسيرة عملي وخطتي للتقاعد من الجيش، وكذلك مسيرة حياتي اللاحقة.

يقال إن (زفاف سيء أفضل من جنازة مهيبة)، قلت في نفسي سأقبل بالاستقالة دون راتب تقاعدي كزفاف سيء، ولن أقبل أن أطمر نفسي في وحل وجنازة هذه المنظومة العفنة طيلة حياتي، وفورًا تناولت ورقة بكر بيضاء وكتبت استقالة من الجيش من دون راتب، وأرسلتها إلى قيادة القوة الجوية، ومن خلالها إلى مديرية إدارة الضباط.

تلك الفترة تدهور الحال الاقتصادي للبلد بشكل دراماتيكي، والذي صاحبه انهيار القدرة الشرائية للعملة العراقية، الأمر الذي جعل رواتب الموظفين والعسكريين وأساتذة الجامعات وجميع ذوي الدخل المحدود لا يكفي لسد حاجات عوائلهم، مما اضطرني إلى التفكير جديًا في إيجاد مصدر رزق آخر، وبما أني أحمل في جيناتي براعة مهنة صياغة الذهب، وأن حب العمل في مجال الذهب يجري في دماء العائلة ودمي.

لملمت أمري، بعتُ قطعة أرض كنت قد ابتعتها سابقًا في منطقة الحسينية إحدى ضواحي بغداد، وكذلك بعت المصوغات الذهبية الخاصة بزوجتي، جمعتُ مبلغًا بسيطًا وافتتحت متجر متواضع في منطقة لا تبعد كثيرًا عن ضاحية الغزالية، كان مكان نظيف جديد في عمارة قد بُنيت حديثًا ذو ديكور مناسب جدًا، لم يكلفني كثيرًا في عملية إعادة تأهيله إلى متجر صياغة للذهب، كما أنه قريب من مكان سكني.

بدأت أعمل فيه مساءً رغم عملي في الجيش وخبرتي المتواضعة في هذا المضمار، إلا أن العناية الإلهية رافقتني طوال دربي ومدتني بالقوة والعزيمة والرزق الكافي، ما لبث أن ازداد عدد زبائني، زادت ثقة الناس بي وأخذ الرزق يتوافر لي وبهذا أصبحت مشغول طوال اليوم في ظل ازدياد خوفي من

المستقبل وخباياه، ساعات العمل في متجري المتواضع تقضي بسرعة فائقة ممتلئة متعة ونشاط تفاعل وحياة، عملي هذا يتيح لي التعامل مع مختلف الناس وبالتحديد العنصر النسوي إضافة إلى الرجال والشباب وغيرهم.

في وحدتي العسكرية أجلس في غرفتي المتواضعة واضعًا ساق فوق أخرى على سطح منضدة المكتب، بعد أن يأخذ التعب مني بسبب القراءة المتواصلة لكتاب (العقب الحديدية) للكاتب الأمريكي الشهير (جاك لندن)، الذي يحكي قصة صعود طبقة طاغية في الولايات المتحدة الأمريكية، وأنا في قمة الخمول يرن جرس الهاتف، وعلى الطرف الآخر يتكلم ضابط أمن المعمل الرائد (ص.ص).

فورًا تتجدد حيوية عقلي وتصبح جميع خلايا جسمي في استنفار تام، وما أزال أحتضن كتابي بيديّ، أذاني تتوسع لسماع ما سيقوله هذا الإنسان الذي يعمل في ماكينة كسر نفوس الرجال رغم دماثة أخلاقه أحيانًا، بعد أن ألقى تحيته المعتادة أعلمني بضرورة مراجعة مديرية الاستخبارات العامة مساء نفس اليوم، أغلق سماعة الهاتف وتركني تلفني حيرتي من جديد، سقط الكتاب وحكايته الأليمة من يديّ إذ أنّ حكايتي أصبحت أهم بكثير من حكاية (جاك لندن) وتعسائه، انهارت معنويتي أكثر مما هي، تحطمت مَناقبي، سقط رأسي بين أكتافي ودخلتُ في صراع نفسي عنيف، تعبت جدًا، شعرت أن أثقال الكون جميعها قد حَلَّت على أكتافي وسحقتني المفاجأة...

هنا اجتاحتني رغبة شديدة في النوم، وفورًا خطرت لي فكرة أن أتمدد على الفراش الذي يستخدمه الضباط أثناء المناوبة الليلية، أو في حالات الإنذار القصوى للجيش، قمت ببطء أغلقت باب الغرفة بإحكام، عدت وتمددت عليه، لحظات وغططتُ في نوم عميق لم أفق إلا بعد ساعتين وقبيل انتهاء الدوام الرسمي، يبدو أنّ النوم قد ساعدني جدًا في نسيان مأساتي التي لا تنفك تراودني مرة بعد أخرى، من جديد إلى مديرية الاستخبارات العامة، يا إلهي... ما الذي فعلت كي يستمر هذا الكابوس معي! ألم تنتهِ هذه القصة الحزينة! ما الذي

يريدوه مني هذه المرة! ألا يملون من التحقيق! ألا يكلون من تكرار أسئلتهم السخيفة؟ كيف دخلوا إلى حياتي دون رادع أو كلل!

الألم يلاحقني ويحاصرني من جميع الجهات وليس لدي سوى التشبث بالحياة، ولكن هل سأنجو هذه المرة كالمرات السابقة أم سينزلوني إلى الأسفل إلى سجن الحوتة؟ المكان الوحيد الذي لا عودة منه هو تحت الأرض، ولست مستعدًا أن اذهب إليه، لقد تأقلمت على هذه المشاكل وأصبحت لديّ مناعة قوية ضدها، ألف سؤال وسؤال تتراود إلى عقلي دون أية إجابة على أي واحد منها سأذهب وليّ الله.

لم أذهب ذلك اليوم إلى متجري، وعند اكتحال المساء ودعتُ زوجتي وأبنائي وتوجهت دون قلب نحو ماكينة سحق الرجال في الكاظمية، أسئلة واستفسارات، غضب وتهديد، وعيد وتوقيع بعدها أعود إلى بيتي محطمًا بائس الحال، شاكرًا الله على سلامتي.

تكرر سيناريو استدعاء مديرية الاستخبارات العامة لي، توديعي لزوجتي وأبنائي بنفس الأسى والحزن وفقدان الأمل بالعودة، والخوف من القادم، لكن الحي العظيم كانَ قد اتخذ قراره في إنقاذي من براثن هذه الزمرة الباغية، لقد أصبحت شيء فشيء زائر دائم لهذا المكان الرهيب.

لقد كنت بالتأكيد ودون أي شك الضابط الوحيد في الجيش العراقي الذي تجرأ في عهد الدكتاتور صدام حسين أن يقدم على مثل هذه الخطوة الجريئة؛ وهي طلب الاستقالة من الجيش، لا والأسوأ في ذلك أني لم أكن برتبة صغيرة، لا بل كنت أحمل رتبة عقيد مهندس طائرات، ولم يتبقَ لي على تسلم رتبة الزعيم (العميد) كثيرًا، كان هذا قبل أن تقوم الاستخبارات بمعاقبتي.

حين أُفكِّر حاليًا في الأمر أرى أنه كان شيء من فرط الجنون في تصرفي هذا، والذي لم يقدم على فعله أي عاقل أو مجنون آخر آنذاك، لاسيما في ظل نظام

صارم وقاسي لا يرحم كنظام صدام حسين، لقد أقدمت على مُجازفة كبرى ومضيتُ فيها كمن يسير على حافة السيف، إذ كان يمكن لأي خطأ في خطتي حتى وإن كان بسيطًا جدًا أن يُرسل رقبتي دون تأخير إلى المقصلة.

مضت فترة ليست بالقصيرة ولم استلم أية إجابة أو رد فعل على رسالة استقالتي الأولى من الجيش، لذا كان لابد لي أن أرسل ثانية أطلب فيها الاستقالة من الجيش دون راتب، وانتظرت مرة جديد، اعتقد البعض أني أسبح عكس تيار الدولة والمنظومة والحزب دون حماية أو وصاية، ولكنهم لم يعلموا أنّ الرعاية الإلهية قد لفتني بحنانها وودها وعدت لا أحسب لأي من أخطارهم.

معمل تصليح المحركات يغوص في المؤامرات والدسائس، يقودها الرفيق المقدم (ح.ف)، ويموج في الأحاديث السرية الجانبية والإشاعات عن التحقيقات والعقوبات والمحاكم، والجميع في ترقب وحذر شديدين مع اقتراب موعد محاكمة القائد، الأجواء مضطربة ومتوترة وقد خرجت عن السيطرة والحصانة لتصل حد الجنون إنه لعالم عجيب، أنام كل يوم منهك وأصحو قبل الفجر يكتسحني السهاد حتى أذهبُ ثانية ودون رغبة إلى الدوام الرسمي، الذي لا أفعل فيه شيء سوى القراءة والأكل والنوم.

أعجبتني فكرة النوم في مكتبي وبدأت أكرِّرها كل يوم بعد أن ترهقني قراءة الكتب كي أستجمع طاقتي من جديد وأستعد لعملي المسائي في متجري الصغير، وهكذا استمر نظام حياتي خلال السنتين من ١٩٩٢ حتى خروجي من الجيش عام ١٩٩٤.

يوم صيفي مُعتاد الشمس تعلو في كبد السماء في أوج عظمتها، الحر في ذروته لا يُطاق، يطرق بوابة مكتبي ضابط الأمن في معملنا، يدخل ويتربع على المقعد الإضافي الوحيد، نفسي تحدثني عن أمر جلجل قادم لا بد أنه يحمل أنباء غير سارة، ضباط الأمن والاستخبارات العراقيون لا يمكن الوثوق بهم، أو على الأقل لا يمكن الاستبشار بقدومهم...

بعد القليل من المجاملات غير الضرورية أعلمني الرائد (ص.ص) أنه عليّ أن أكون في صباح الغد عند بوابة المحكمة الخاصة، (وهي نفس ما كانت تُسمى بمحكمة الثورة)، محكمة الإعدامات، سَمها ما شئت، هي التي تختص بالمحاكم التي تخص قضايا أمن الدولة، لغرض الإدلاء بشهادتي مع الضباط والمراتب الآخرين حول قضية القائد، وقعتُ تحت سطوة المفاجأة ولم يكن لي رأي في تلك اللحظة سوى الإنصات وهز الرأس قبولاً، لا شيء سوى الصمت، صمت القبور يلفُ المكان، دقات قلبي تتسارع ومعها أنفاسي، انحسرت الرؤية عندي رغم ضوء النهار المتدفق، تحشرجت روحي في صدري، يبدو أنها قصة مريرة لا تنتهي، أحدثُ نفسي هل نحن في زمن محاكم التفتيش الأوروبية، وهل ستستمر عمليات حرق البشر أم رميهم بالرصاص لا أعلم، الموضوع بأكمله يسبب لي صداع خوف، وارتباك كبير في حياتي.

ما أن خرج ضابط الأمن حتى نظرت إلى سريري الدافئ، غالبًا ما يعتريني شعور بالنوم حين تضيق بيّ الدنيا وأشعر بكدر شديد، وقد يكون هذا رد فعل جسمي التلقائي للهروب من المشكلة رغم أني أعتبرها نعمة ربانية، ولهذا قفزت فورًا نحو السرير ورحتُ في نومٍ عميق، في منامي تراءى لي حلم جميل حينما أرسلتُ في بعثة تخصصية لدراسة عمليات التصليح العام للمحركات النفاثة الجوية إلى الاتحاد السوفيتي مع القائد ومجموعة كبيرة من الضباط والمراتب، وتراءت لي رحلتنا أنا والقائد يوم تمَّ استدعاءه من مدينة (بيسك) التي كُنا ندرس فيها إلى موسكو من قبل الملحقية العسكرية العراقية، حينها اصطحبني معه كوني أجيد اللغة الروسية، كُنا قد اتخذنا مكاننا في القطار المتجه إلى مدينة (روسوتوف على نهر الدون)، حيث يوجد المطار الذي سنطير منه إلى العاصمة موسكو.

كان القطار أثناء رحلتنا فيه يسير بين الغابات الخضراء الكثيفة والسهول المنبسطة، ويتوقف بين محطةٍ وأخرى قُرب بعض القُرى الروسية حيث تتواجد

في المحطات بعض النساء اللواتي يعرضنَّ ويبيعنَّ فاكهة وخضار إنتاج مزارع بيوتهنَّ، كانت الفواكه طازجة جيدة وشهية وكذلك رخيصة جدًا لذا كان القائد ذو الشهية الكبيرة يرجوني بشراء بعضها فأترجل من القطار وأجامل النسوة المُسنات بلغة روسية لطيفة وأشتري منهنَّ بعض الفاكهة وأعود بها ظافرًا فَرِحًا إلى قائدي الذي ما أن تقع عيناه عليها فيبدأ بالانقضاض عليها دون رحمة.

تكرَّر هذا الأمر في محطتين، ولما كان الجو آنذاك باردًا نسبيًا والفاكهة طازجة وبارة أيضًا فلقد سبب أكلنا الفاكهة مشكلة كبيرة في مَعدتينا، كَظِمنا سِرنا خجلاً من بعضنا، ما أن اقترب القطار من نهايته حتى زادت مشكلاتنا مع بطوننا دون أن يعلم أحدنا بالآخر.

توقف القطار في المحطة النهائية في مطار مدينة (روسوتوف على نهر الدون)، قفزنا بسرعة كبيرة من القطار واتجهنا نحو صالة المطار ودون شعور أو اتفاق توجهنا بسرعة نحو حمامات المطار فوجدنا أحد الحمامات شاغرًا فما كان مني إلا أن أسرعت خطايَّ ودخلت الحمام تاركًا القائد يعاني من مشكلة بطنهِ. لم أكُن أعلم بحاله ولم يعلم هو أيضًا بحالي، بعد فترة قصيرة جلسنا في صالة المطار وبعد أن ارتحنا من بطنينا في انتظار موعد طائرتنا حتى أَفشى كلانا عن سِرهِ وعلم كُلٍ مِنَّا بحال الآخر، حينها ضحكنا وأخذنا نتذكر ونتندر بهذه الحادثة الطريفة بين فترة وأخرى.

شهر تموز المستعر حرًّا والملتهب ليل نهار، الموضوع يأخذ طابع دراماتيكي جديد بشكل لا يُصدق، لقد ارتفع مستوى التهديد والخطورة إلى قمته كأننا في آتون حرب وها نحن نصل إلى محكمة الثورة، طرق في ذهني اسم هذه المحكمة سرح فكري بالمراجعة وتذكر قصة عناصر حزب الدعوة، وعُدتُ بذاكرتي إلى عشر سنوات خلت، حين جاءت شهادتي الشجاعة الصادقة كصك إنقاذ لحياة العديد من عناصر حزب الدعوة الذين حوكموا أيضًا في محكمة الثورة، لم أمثل آنذاك أمام محكمة الثورة كون شهادتي كانت كافية، ولكن كيف

ستؤول الأمور هذه المرة، إذ أني يجب أن أمثل بكياني أمام هذا المحكمة التي علا صيتها كثيرًا في قرارات الإعدامات السريعة، هذه المحكمة التي ترتعد أبدان العراقيين حين سماعهم باسمها، لا أعلم ما سيحصل معي حين سأمثل شخصيًا أمام قاضي هذه المحكمة، سأقرأ دعائي المُفضل وسأذهب متسلح بقوة الحي العظيم، وصلوات أمي التي لم أخبرها بكل تفاصيل هذه القصة الأليمة كي لا أربك حياتها وأشوش هدوء وراحة بالها.

مساء ذلك اليوم مضى حزين قلق لم أستطع تمالك نفسي، لم أكن مُفعم بالحيوية والنشاط كعادتي في عملي، كنت جافًا بعض الشيء مع زبائني ولا يعلمون سر هذا التغيير، وضعي النفسي غير مرتاح ولا أستطيع أن أمثل دور غير حقيقتي، أمضي وأعمل وأتحدث على سليقتي ووفق ما يرافق حالتي من اضطهاد وقلق رعب واختناق.

دخلت متجري امرأة شابة تحمل طفل رضيع لم أتعرف إن كان ولد أم بنت، جلست دون استئذان، تبدو تعبة منهكة، عيونها كبندول قلقة حائرة تتحرك يميناً وشمالاً دون نظام، كعادتي جلبت لها كأسًا من الماء البارد كي أطفئ ظمأ وحاجة جسدها إلى الماء الحي وروحها إلى الطمأنينة، ما أن سكبت كأس الماء في جوفها حتى انخرطت في بكاء مُرٍّ مرير، سقطت دمعاتها بغزارة ساخنة وصافية...

أذهلني وضعها، يا إلهي ما هذا الحزن وما هذا المصير، كيف تتطابق مأساتي مع حزنها وبالتحديد في هذا المساء الكئيب وهذا الظرف العصيب، لم استعجل سؤالها بل تركتها تغسل هموم روحها بدموعها كي تقذف حمم حزنها بعيدًا، كانت في العشرينات من عمرها، حنطية البشرة دائرية الوجه، ذات مسحة خفيفية من الجمال، ويبدو أن قدرها قد أزال معظم نظارتها.

ما أن هدأت حتى بدأت تسرد عُسر حالها، وأنها لا تملك نقود كي تبتاع حليب لطفلها الرضيع، اضطراب هادر بدقات قلبي، الصمت والصبر قد أصاباني

بقوة، لم أستطع مقاومة هذا الموقف، فما كان مني إلا أن اقترح عليها مبلغ كافي من المال، وكي لا أجرح إحساسها قلت لها إن هذا دين في رقبتك تُسدديه متى فُرجَتْ عليك، مدت يدها مرتجفة تناولت المبلغ، دَسته في صدرها تحت ثوبها المزركش دون ترتيب، نكَست رأسها نحو الأرض نهضت بتثاقل بعد أن احتضنت صغيرها إلى صدرها الذابل بقوة، أخر لحظة قبيل خروجها من متجري وعدتني بإعادة المبلغ، رحلت وتركتني بين هَمّين؛ هَمي وهَمها.

ليلة هادئة وصافية، القمر يتربع على عرش السماء مادًا أرضنا بضيائه الوفير، النجوم تتلألأ كحبات ماس صغيرة تنتشر وتُطرز شاشة الكون، صراع عنيف في نفسي سَلَبَ السهاد من عيني في الليل، لا أستطيع النوم، أنهضُ من سريري افتح ستارة الشباك الثقيلة كي أرى الدنيا، كعيون الذئب ترقب عيوني حركة الشُهب الساقطة عسى أن أحظى بإشارة ربانية تمنحني الأمل بالنجاة هذه المرة أيضًا، رفعت يديّ إلى الحي العظيم ورجوته أن يُكمل استجابته لصلوات أمي ودعوات زوجتي، وينقذني من فكي هذا التنين الشرير الكبير.

فاتني أن أقول إنَّ طائفتنا المندائية وبمبادرة طيبة من لدُن رئيسها المرحوم الريش أمة[1] عبد الله نجم وأعضاء المجلس الروحاني الأعلى للطائفة؛ قد شكلوا وفد رفيع وزاروا مكتب (علي حسن المجيد) وزير الدفاع آنذاك لغرض التماسه لإنقاذ القائد، لم يلتقيهم الوزير شخصيًا بحجة انشغاله، واكتفى مدير مكتبه باستلام طلبهم ووعدهم بالخير.

صبيحة يوم المحكمة الصيفي المُشمس الخانق، نهضت وعيوني لم تَريا النوم، جفوني تعبة لا تستطيع حمل نفسها، روحي ترتعش وقلقها يصل مداه إلى أقصاه، رغم أني أشعر أنّ الله يقف فوق رأسي يحرسني، على عجل ودون رغبة تناولت فطوري رغمًا عن نفسي، لإدراكي حاجة بدني إلى طاقة كي

:- الريش أمة : درجة دينية عُليا في الديانة الصابئية، وتعني رئيس أُمة، ويوجد حاليًا رجلا دين بهذه الدرجة.

أسنده، تخرج كلماتي مُختنقة خفيضة كي أودع زوجتي، هي تُتَمتم في سرها وأظنها تدعو لي بالعودة سالمًا، أنطلق بسيارتي نحو محكمة الثورة – التي ستحدد مصيري ومصير القائد – في مكانها الجديد الذي يقع على تخوم العاصمة بغداد، إذًا فطريقي أصبح نحو محكمة الثورة.
أين الشرائع السماوية الأولى التي نزلت على هذا البلد؟ أين حضارة هذا البلد الموغلة في القدم؟ أين الشرائع الأولى التي سَنّها حمورابي؟ أين احترام الإنسان وحقوقه؟ أين كُل هذا وبلدنا يدعنا ننساق كقطيع من الخراف خلف بعض الأشرار دون خطيئة؟.

كيف نُسمي هذا البلد وطن لنا وهو لا يحترم آدميتنا ولا يعتبرنا مواطنيين؟ هذا البلد الذي حتى لا يحسبنا بشر، وإنما أدوات يُحركنا كيفما يشاء، صحيح أننا مندائيو الديانة ولسنا على دينهم، ولكننا أصل سكان هذا البلد حتى قبل مجيئهم، هل نحن كَفرة كوننا نؤمن بالله ونؤمن بنبينا (يحيى بن زكريا) عليه السلام الذي هو غير نبيهم، أليس لنا كتاب مُقدس وهو (الكنزا ربا – وتعني الكنز العظيم) وفيه أولى التعاليم السماوية التي نزلت على أول البشر سيدنا آدم؟ هل يُفترض أن يكون مثوانا الأخير هو نار جهنم؟ هل هذا جزاء مواطنتنا الحقة حيث لم يظهر من بين ظهرانينا متقاعس أو خائن أو جاسوس على مدى الأزمان ولغاية الآن؟ ألم نكن مواطنين صالحين كباقي شرائح المجتمع العراقي؟ ألم نُضحي بعدد كبير نسبيًا من أبنائنا في سبيل الوطن الذي لم يعتبرنا يومًا مواطنين من الدرجة الأولى؟ وأخيرًا أتساءل كمندائي هل العراق هو وطننا أم هو فقط وطن الآخرين من دين الأكثرية؟ وللتاريخ لا بد أن أشهد أنّ السلطات والحكومة قبيل انهيارها بعد حرب الكويت كانت قد أمّنت الحماية الكاملة للأقليات الدينية جميعها دون استثناء.

أوقفت سيارتي في الشارع المحاذي لمديرية الأمن العامة، ترجلت منها بتثاقل واضح، أقفلتها وتوجهت نحو البوابة الرئيسية للمديرية الرهيبة، ساقاي ترتعدان

ترتعشان لا تستطيعان حملي، ليس بسبب أرض العراق التي تموج بالاهتزازات والحروب والاضطرابات دومًا ولا تهدأ أبدًا؛ وإنما بسبب حرارة جسمي التي تنخفض بسرعة من رأسي إلى أخر أطرافي، وتهتز بردًا وخوفًا دون أي سيطرة مني عليها.

ما أن سرت عدة خطوات حتى رأيت أهل وذوي القائد واقفين كجدار صامت، وعيونهم تتراقص رعبًا وترنو إليّ بقلق وخوف شديدين، ألقيت التحية عليهم، وقفت بجانبهم قليلاً، تكلمنا عن الوضع وما سينتج عنه، أخبرتهم عن حساسية وضعي وخطورته، تفهموا حالي وتمنوا لي ولابنهم التوفيق والسلامة، أرواح جميعنا كانت تُصلي وتلوذ بحصانة مُعتقدنا وديننا المندائي لنجاة ابنهم ونجاتي من هذه المِحنة، عيون والد قائدي كانت تطلق بريق الحزن والخوف والترقب إلى أقصاها، لكنه كان كالجبل ثابت، تمنيت لهم ولقائدي خير بعد أن طمأنتهم بالخير ومضيت.

دخلت بوابة المديرية يرافقاني الهلع والرعب، مُصوبًا بندقيته أوقفني العسكري المتأهب ووجهه العبوس بسحنته الداكنة ولهجته البدوية الواضحة نحوي، ببساطة يمكن أن يحزر المرء أنه لم يكمل تعليمه الابتدائي، أريتهُ هويتي العسكرية وقلت له:

– لقد تمَّ استدعائي للمحكمة الخاصة...

نظر إليّ بطرف عينه ودون أن ينبس بحرف واحد أشار لي بالدخول بواسطة تحريك سلاحه في اتجاه بوابة الدخول، دون أن يُكلف نفسه أن يقول حرف واحد، استمريت بقطع طريقي نحو جهنم وتخطيت عتبة باب استعلامات مديرية الأمن العامة حتى وصلت غرفة الضابط المسؤول فيها، شاب في عمر الزهور، تظهر عليه جدية فوق العادة يجلس منتصبًا خلف مقعده الوثير، متورد الخدين لكن وجهه قد فارق الابتسامة منذ زمن بعيد، قدمت نفسي وأظهرت له هويتي،

نظر إلى قوائم أسماء عديدة كانت موضوعة على منضدته دون ترتيب، وأشار لي بالجلوس بعد أن وضع علامة مُعينة مقابل اسمي وأعاد لي هويتي.

الأوطان المحترمة تعمل المستحيل لمواطنيها، تحمي أبنائها وتجعلهم سادة سعداء فيها، إلا وطني العراق حيث إنّ جميع الناس فيه يعملون كخدم وعبيد للوطن أو كحِملان للقائد الضرورة وحزبه الحاكم، جواز سفر المواطنين العراقيين المُخصص للعمل خارج حدود العراق أصبح لا قيمة له، وظيفته اقتصرت على الخروج من البلد فقط بعد دفع الرشوة في كثير من الأحيان.

أجلس أتأمل الداخلين والخارجين من الناس، وعناصر الأمن بعضهم مُكفهري الوجوه والبعض الآخر من النساء الجميلات اللواتي تظهر النعمة على وجوههن بوضوح وبلاغة، يضعن ملابس فاخرة على أجسادهن الناعمة المكتنزة ويمشين بتبختر زائد، تزدحم الأفكار في رأسي وتتصارع وينبعث سؤال يحيرني: "هل هذه النسوة تعمل كمُخبرات لدى الأمن العامة؟"، نعم يبدو أنهن يعملنَّ لديهم، إنهم يدسونهن بين ضحاياهم، إذ أنّ الأمن يعمل وفق مبدأ (السنونو والغربان)، والسنونو في عُرفهم تعني النساء الجميلات اللواتي يقمن بأعمال الأمن واستراق الأخبار عن طريق الإيقاع بِفرائسهن بالإغراء والدوافع الجنسية، أما الغربان فهم الرجال المخبرون.

عناصر الأمن يعرفون ما يدب على سطح الأرض وحتى تحتها وأفضل من الجرذان ولا يمكن الوثوق بهم إطلاقًا، لقد دَسَّتْ الحكومة عيونها وآذانها في كل مكان وفي كل زاوية، حتى في طيات فراش البعض، إذ تذكرتُ حدث حقيقي حصل مع ضابط أعرفه جيدًا، حين قامت زوجته بتسجيل كاسيت لصوته وهو يتفوه بكلمات لا تليق بالنظام، وهذا كاد أن يطيح برأسه ولولا مشيئة الله وعطفه عليه لأصبح في خبر كان.

إن كيد النساء لعظيم أليس هذا ما يُقال! وهذا ما جرني إلى أيام خلت حين رحلنا بقطار من موسكو لمدة يومين كاملين إلى الحدود المتاخمة بين

كازاخستان وكيرغيستان، والقريبة جدًا من الحدود الصينية، إلى مدينة صغيرة جدًا تدعى (لوكافايا)، حيث توجد قاعدة عسكرية روسية تغفو على كتف سلسلة جبلية شاهقة في ظل أجواء شتوية قاسية البرودة.

كان ذلك في مطلع عام ١٩٧٨؛ وكانت مهمتنا هي إجراء تطبيق عملي حقيقي على طائرات الميك ٢٣ الموجودة في تلك القاعدة، القاعدة تضم مطار عسكري كبير وقرية صغيرة جدًا مُلحقة بجانبه خاصة بسكن عوائل الضباط والعاملين في القاعدة، القرية بسيطة جدًا وتلتئم على بار متواضع صغير يحوي على عدة مناضد قديمة ويقدم الجعة الروسية اللذيذة.

يوم سبت شتوي والجو بارد وقارص ولا مكان ترفيه غير هذه البار الفقير، فذهبت له كي أقضي بضع ساعات دون أمل بحصول أي مجهول، ما أن دخلت البار حتى وقع نظري على مجموعة أشخاص تحتل طاولة عتيقة وكان من ضمنهم زميلي (ي)، تحيط به امرأتان جميلتان مكتنزتا الجسم بدتا بعمر أكبر منه، اتخذتُ مجلسي على طاولة مستقلة بعيدة نسبيًا، وجلست بعد أن ألقيت التحية عليهم، طلبتُ كأسًا كبيرًا من الجعة وأخذتُ أتلذذ بطعمها الفاخر، فترة من الزمن مرت حتى دعاني صديقي وحواريه إلى طاولتهم فلبيت ذلك عن طيب خاطر، لم يمر أكثر من نصف ساعة حتى اقترحت إحداهما الذهاب إلى بيتها لتناول طعام الغداء.

بيت تلك المرأة التي رافقت صديقي كان متواضعًا جدًا إلا أنه نظيف ومرتب يشعر المرء فيه بالدفء والهدوء، طلبوا مني أن أحضر طعام وفق طريقة الطبخ العراقية، فمكان مني إلا أن بدأت بتحضير طبق (التبسي) الشهير، وهو خليط من عدة خضار مقلية مع اللحم مع الصلصة.

تناولنا الطعام حيث أبدى الجميع إعجابهم به أثناء ما تصادمت حافات كؤوس الفودكا الروسية مع كلمة (نا زداروفيا) وتعني في صحتك، ما أن مضت فترة ساعة من الزمان حتى أخذت الفودكا الروسية تدور برؤوسنا، حينها نهضت

فتاة صديقي من مقعدها بتثاقل واضح ماسكة يد صديقي (ي) وراقصته تحت أنغام أغنية روسية شهيرة، ما أن انتهت الأغنية حتى سحبتهُ واتجهت به نحو غرفة نومها، لم يعارضها بل وكالخروف سار خلفها، المرأة الأخرى تنظر إليّ تارة بابتسامة شهية وتارة أخرى ترجو الرقص على أنغام الموسيقى وثالثة كذبيحة تتلوى أمامي، حتى طلبت مني بشكل مباشر أن نذهب إلى بيتها.

لم أكن أرغب فيها، إذ كانت تكبرني قليلاً بالعمر ورغم جمالها البائن بقوة على وجهها وشعرها الذهبي القصير، الذي بدا أخاذ عليها، وحركات جسدها الأنثوية البارعة، إلا أن نفسي عافت وعزفت عنها ورغم ذلك تبعتها، بينما كُنت أسير في الأزقة الملتوية الضيقة خلفها وأشاهد مؤخرتها المكورة الكبيرة نسبيًا تتلوى بنعومة ودلال في منظر شبقي كما في الأفلام الأجنبية، على ما بدا لي كانت تستعد لهذه اللحظة العاطفية الغريبة مع شخص أجنبي مصنوع من سحنة وعجينة أخرى، لم يمكنني الاستمرار في هذه اللعبة التي لم أكن أرغب فيها، وبدت لي أنها ستصبح حقيقة، حينها قررت ألا أمضي في هذا وضربت في رأسي فكرة أن أستدير كالعسكري الهُمام بخطوات سريعة إلى الخلف، فكرتُ وقررتُ، عندها أطلقتُ ساقاي إلى الريح، فعلت ذلك دون أن أنظر إلى الخلف.

القرية صغيرة ولا مجال للتخفي، قابلتني في البار، اعتذرت منها بقوة، بعد مضي شهر كامل، وحين بدأ الشوق والحنين يتصاعد، وضرب الهوى في رأسي حتى رأيتها مساء يوم كان الظلام شريكنا حتى عرضت عليها ما اشتهت فعله سابقًا ولم تحصل عليه، رفضت هي بتواضع وإباء وذكرتني بفعلتي، ضحكت ساخرة من حركتي الماضية الطفولية التي ما زالت تحتفظ بها في ذاكرتها واعتذرت مني بأدب ومكر شديدين، بعدها مضى كل منا إلى غايته، كان ذلك مكر نسائي حقيقي، إلا أنه كان مكر لذيذ.

مرت فترة صمت متواصل وتأمل وتحليل لم أصل فيها لأي شيء ذو فائدة سوى تبذير الوقت الذي أصبح بالأساس لا قيمة حقيقية له، أواصل تأملي

وتحديقي بالمحيط الذي حولي، استوقفتني صورة للقائد القيصر كبيرة رُسمت باليد، والمعلقة على جدار حائط الغرفة المقابل للداخلين إليها، يظهر فيها وهو يعتمر الكوفية العربية الحمراء والتي كانت تقبع على رأسه إبان الأيام الأولى للحرب العراقية الإيرانية رافعًا يده يوم رأيته لأول مرة بأم عيني، أتفحصها بنظرة دقيقة أقارن تقاسيم وجهه آنذاك مع ما احتفظ به له في الوقت الحالي فأجد فرق شاسع، هنا تحضرني الشائعة أو الحقيقة التي تؤكد على وجود عدة شُبهاء أو بدلاء له، يقال إن عددهم خمسة شُبهاء يقومون بواجبات مختلفة في الظهور الإعلامي والمقابلات غير المهمة، والتواجد في أماكن عدة لأغراض تشتيت انتباه المتربصين به من أعدائه لغرض حمايته من مخططاتهم ضده، وكذلك لتقليل جهد العمل عليه، يا لها من فكرة جهنمية.

بعد قليل يدعوني ضابط الاستعلامات الشاب بنبرة جدية صارمة أقرب إلى الآمرة أن أتبع أحد عناصر الأمن برفقة بقية ضباط ومراتب وحدتي العسكرية الذين حضروا كذلك لغرض الشهادة في قضية القائد، نسير جميعًا خلف هذا العنصر الأمني في أزقة مديرية الأمن العامة المتعرجة، هذه البناية التي بُنيت حديثًا والتي تحمل شكل هندسي تراثي تاريخي مُميز، ولا أعلم ما الذي يخفيه هذا الشكل الهندسي الرائع تحته أو بين ثناياه من زنزانات وأقبية يقبع فيها الرجال والنساء الذين غضب النظام عليهم لسبب حقيقي أو لوشاية ما، أو لأغراض التأديب والترهيب، ومن ضمنهم قائدي.

في قلب الأمن العامة نسير قدمًا وإذ أرى بناية مكعبة الشكل عالية نسبيًا عن بقية مباني المديرية المجاورة، يعتليها في جوانبها الأربعة؛ أربعة مقاتلين مُدججين بالسلاح، وعلى أهبة الاستعداد، وكأنهم في الصفوف الأمامية لجبهة قتال، وهذه الصورة تُذكرني بحراس بناية الرايخ الألماني أثناء الحرب العالمية الثانية، ينفذ عنصر الأمن ويتغلغل في هيكل البناية فنندسُ فيها خلفه دون وعي

أو تدبير، يسير بنا في ممراتها لغاية رحبة الانتظار، يُسلمنا كفدية إلى ضابط استعلامات محكمة الثورة (المحكمة الخاصة) ويمضي.

شاب جميل دمث الأخلاق بشوش الوجه طويل القامة يحمل رتبة نقيب، يبدو أنه مُختلف في مظهره عن الآخرين، لا يظهر تحت مظهره رجل قاسي والله أعلم ما في داخله، يطلب منا الجلوس بأدب جم، لقد أصبح هو الآن راعينا أي راعي قطيعنا البشري، أقول في نفسي لا بأس براع بشوش من راع ذي سحنة شيطانية، نحن الضباط استقر بنا المطاف جالسين في غرفة انتظار خاصة بنا أما المراتب فتم تخصيص غرفة انتظار أخرى لهم.

غرفة الانتظار كبيرة نسبيًا لها بابين، الأولى التي دخلنا منها والأخرى أتوقع أنها تؤدي إلى قاعة المحكمة, تتكلم عيوننا مع بعضها همسًا وتنطق بلغة الإشارة، أصواتنا اختنقت واختفت وحلت محلها لغة الدعوات والصلوات على أرواحنا، أفكاري جميعها تتركز في كيفية الإجابة عن الأسئلة التي ستوجه لي، وكيف الخروج من هذا المأزق الكبير الذي يخصني وحدي، والتحديد من بين كل هؤلاء الشُهود إذ أنّ صفتي كالبهلوان الذي يقف على حبل مُتأرجح تتأرجح تتراوح تتمازج بين الشاهد والمتهم، سأركز على نفس إجاباتي التي أدليت بها في مديرية الاستخبارات العامة سابقًا ولا أحيد عنها أبدًا، ولكن كيف سأواجه الأمر إذا ما تمَّ محاولة الإيقاع بي إذا ما جاءت شهادة الآخرين منافية لشهادتي بالتمام؟.

أقسمُ بحياة أبي أن هناك مكيدة للإيقاع بكلينا أنا والقائد، هل سيقومون بمحاكمتي مرة أخرى وهذه المرة ستكون أشدُ وطأة من سابقتها وأكثر خطورة! لا إجابات على جميع أسئلتي ولكني قد فوضتُ أمري للحي العظيم وهو القادر على كل شيء، على المرء أن يكون حذر جدًا إذ أنّ أية هفوة قد يدفع حياته مقابلها، لا مجال للخطأ في لعبة الحياة.

في لُجة الصمت تنفتح الباب الثانية فتخرج علينا كتلة بشرية هائلة تلفها (دشاديش) أثواب بيضاء وتحملها أيادي بعض عناصر الأمن، صدمة جديدة كبرى تُضاف إلى صدماتي، دون وعي تخرج من فمي دهشة كبيرة وصوت مُختنق، اضطراب هائل بدقات قلبي الذي أصبح لا يحتمل مثل هذه المفاجأت، يا ربي عطفك ما هذا الذي أرى!

أجساد بشرية لا تقوى على الوقوف أو الحركة أو السير، ولهذا يحملهم عناصر الأمن من قاعة المحكمة خارجًا، أشباه بشر أو في الحقيقة يمكننا القول إنهم هياكل عظمية بشرية مُجردة، يمكن للمرء ببساطة أن يعتقد جيدًا أنها في طريقها إلى السماء، ولكن لا أحد يعرف هل ستذهب إلى الجنة أم النار، ينحسر الموقف في ظِل صمت القبور الحقيقي الذي يلفنا جميعًا، نجلس الآن برعب أكثر لا سيما وأننا علمنا من الضابط الشاب أنهم من عناصر حزب الدعوة العميل (على حد قوله آنذاك) وننتظر مصيرنا.

مرت الدقائق والساعات طويلة كدهور مُملة ورهيبة، وفي ظلِ هذا الموقف المأساوي يرن هاتف ضابط الاستعلامات ليفزعنا مرة جديدة وينقلنا من عالمنا الصامت الافتراضي إلى عالم حقيقي عميق السوء، يرفع الضابط سماعة الهاتف ليقول كلمات: "نعم سيدي أوكي نعم شكرًا سأبلغهم حاضر سيدي" ويضع سماعة الهاتف في مكانها، ينهض من مكانه يعرض ابتسامة خفيفة ويقول:

– يمكنكم الذهاب الآن، إذ أنّ المحكمة قد أجلت إلى يوم آخر وسنبلغكم بذلك .

وأخيرًا يأتي الفرج كي نستطيع العودة إلى بيوتنا سالمين ورؤوسنا تعتلي أجسامنا ولكننا لا نعلم لماذا تمَّ تأجيل المحكمة، كذبيحة نجت بجلدها توًا من حافة سكين القصاب الفائقة الشحذ؛ أنهضُ برشاقة كبيرة مع زملائي الآخرين كي أهرب بعيدًا عن جدار محكمة الإعدامات وأنفاسها الثقيلة العفنة التي لم أعهد عليها أبدًا، أسرع خطايَّ نحو بوابة مديرية الأمن، أتخطى عتبة استعلاماتها كي أخرج عن حدود المديرية بأكملها حتى أستطيع أن أعبئ رئتيّ

بكمية كبيرة من الهواء النقي غير الملوث بأحاسيس وأفعال رجال الأمن، يقابلني أهل القائد متلهفين لسماع أي خبر عن ابنهم، ولكن لا خبر أستطيع إخبارهم به ولا نهاية تبدو في الأفق لهذه القصة البائسة، ويمضي الجميع كل إلى وجهته دون وداع.

كانت زوجتي تقف خلف شباك مطبخنا الكبير الذي جعلته أثناء تصميمي له أكبر أفسح وأحدث مكان في البيت، كردة فعل نفسية وكتمرد على وضع مطبخ بيتنا السابق المُعتم الصغير، جعلته أكثر إضاءة، تجاوره على طوله من جهته اليمنى حديقة البيت لتعطي للجالس فيه بعدًا وأفقًا أخضر وراحة نفسية كبيرة، كانت تقف وعيونها التي ملأتها الأحزان والخوف والقلق ترنو إلى الشارع من خلال جراج البيت، ما أن ظهرت سيارتي في واجهة البيت حتى هرعت إليّ طائِرة تحمل ملايين الأسئلة التي أجبت عليها جميعًا بجملة واحدة: "أن المحكمة قد تأجلت إلى موعد آخر"، دخلنا بيتنا الدافئ احتضنت أبنائي الثلاثة، قبلتهم بحرارة، نظرت في أعينهم البريئة بقوة؛ تلاشى نصف هَمّي وهدأت، جلست وسردت لزوجتي كل ما حدث وما رأيت من أهوال في هذه المديرية المشؤومة.

يسيطر على الناس اعتقاد ثابت سائد أنّ من يدخل محكمة الثورة لا بد أن يخرج منها محمول على تابوت، هكذا اعتقد العراقيون – وهم على حق – يملأهم الخوف والرعب من ذكر اسم هذه المحكمة التي يضيف إليها شيء من الهالة المرعبة الرهيبة حيث استقرت في عقول ووجدان البشر.

صباح مُشمس رائق ليوم جديد وحياة رتيبة نهوض صباحي غير مرغوب، دوام ممل دون أي إنجاز مفيد، فطور رائع، قراءة كتاب ممتع، متابعة موضوع استقالتي التي مَرّ عليها فترة دون إجابة، هذا أهم شيء في وقت تواجدي في المعمل، نوم هانئ، العودة إلى البيت واستردادي لطاقتي وحياتي أثناء تناولي الغداء مع زوجتي وأطفالي ثم المضي بعد قيلولة قصيرة قدمًا إلى متجري

الصغير الذي يملأني العمل فيه حيوية ونشاط وحركة غير اعتيادية مع أناس تعارفت عليهم من خلال عملي.

جاء رجل مُحترم تبدو عليه الهيبة والوقار يبغي بيع آنية فضية رائعة، فحصتها وأعطيته مبلغ مناسب لها فلم يرغب ببيعها لي، وحصل أن جاء مرة أخرى وثالثة حتى أصبح يتردد على متجري يوميًا، دون الأحاديث معه يكون يومي كطعام دون ملح. الدكتور (ع. ا) أستاذ في أكاديمية الفنون الجميلة متوسط القامة أسمر البشرة حلو المعشر وعلى مستوى عالٍ من الثقافة والمعرفة والاطلاع والأخلاق، يجيد اللغة الروسية كونه قد أنهى دراسته في الاتحاد السوفيتي، وبهذا كانت لدينا العديد من القواسم المُشتركة التي قربتنا بشكلٍ مُلفت، وأصبحنا لا نفارق بعضنا وصولاً إلى الكلام عن الأمور السياسية الممنوعة آنذاك بحرية مطلقة أمام بعضنا دون حرج أو شك أو خوف.

لكثرة تواجد صديقي في متجري أصبح البعض يعتقد أنه قد يكون شريكي، لم يكن ذلك يضايقني، وغالبًا ما كان يدعوني إلى أكاديمية الفنون الجميلة صباحًا لحضور جلسات الدفاع عن أطروحة لشهادة ماجستير أو لشهادة دكتواره، أجلس استمتع بالمناقشات الجادة والنافعة بشغفٍ كبير، أتمتع بحلو الكلام وأعجب بالنظام السائد للجامعات المدنية إذ أني لم أخبرها، كوني قد أكملت دراستي في أكاديمية عسكرية وشتان ما بين الاثنين.

قبيل أن تبدأ جلسات الدفاع يأخذني صديقي إلى نادي الأساتذة، نجلس نحتسي الشاي ليعرفني على زملائه الأساتذة؛ وهم الفنانون العراقيون المشهورون والذين أراهم يوميًا على شاشة التلفاز، أتحدث معهم ينتابني شعور وكأني ألعب دور سينمائي في إحدى المسلسلات أو الأفلام، لقد كانت تجربة رائعة ولا أعلم ما حل بصديقي العزيز بعد كُل ما جرى بوطن كان يُسمى يوم ما (عراق)، ولا أعلم أنه سيبقى يحتفظ بهذا الاسم أم سينشطر إلى عدة أسماء لمجموعة دويلات شبه مستقلة في ظِل ما يجري.

يقول المثل المصري الأثير (اليوم الخبر بفلوس بكرة ببلاش)[1]، الوضع في معملنا متأزم والأخبار أصبحت مجانية يوميًا ودون الحاجة إلى الانتظار للغد، بعد أن كان الجميع يتهامسون أصبحوا يتكلمون علنًا عن أسباب تأجيل محكمة القائد، كل واحد من الشهود يُدلي بدلوه من وجهة نظره الشخصية ويبدي تصوراته وتوقعاته للآخرين ولا أحد يستطيع الحكم على الأمور, الجو ثقيل وخانق، لم أعد أتحمل البقاء في هذا المكان الذي أصبح موبوء بالنفاق والخبث والضغينة والإيقاع، أصبحت بحال لم أعهدها من قبل، كل ما يهمني الخلاص من هذه المجزرة البشرية وفصل ارتباطي بهذه المؤسسة العفنة والانزواء مع حياتي خارجًا عن دائرتهم النتنة.

يرن جرس الهاتف يخبرني صديقي وزميل دراستي الجامعية (خ.ر) والذي يشغل منصب ضابط أمن المعمل في حالات غياب ضابط الأمن الأصلي ويطلب مني موافاته في مكتب أمن المعمل، حياتي أصبحت بمجملها تدور من أمن معمل إلى أمن عام، من استخبارات جوية إلى استخبارات عامة، ومن محكمة ثورة إلى محكمة خاصة، اللعنة على هذا الزمن الأغبر الذي جعلني أدور بين تروس هذه المكائن اللعينة، أدخل مكتب الأمن وعيوني شاخصة نحو زميلي، يلتقيني بود وحفاوة كبيرتين، أجلس قلقًا، يوافيني جندي الخدمة بقدح من الشاي وقدح يحوي ماء بارد ويمضي، يفهم زميلي سِر قلقي فيغمزني بعينه مُحاولاً تهدأتي ويقول:

– لقد وردتني من الاستخبارات رزمة من الأوراق أود أن نملأها سويًا كونها تخص ابن عمك (نزار الزهيري).

:- اليوم الخبر بفلوس بكرة ببلاش: مثل مصري متداول شهير يعني أن الخبر السري هذا اليوم سيفتضح غدًا وسيكون مجانًا.

العقيد (خ. ر) أحد زملاء دراستي الجامعية ينحدر من قرى في محافظة الموصل شاب قصير القامة فاتح البشرة بدوي الطباع حلو المعشر مهندس ناجح ويمكنني الوثوق به.

أخذنا نملأ النماذج الكثيرة العدد، وكانت تخص ابن عمي نزار الذي هرب مع زوجته أواخر عام ١٩٧٨ بعد أن علمني سياقة السيارة بسيارتي الفيات الإيطالية البيضاء الجديدة، التي ابتعتها بعد انتهائي من دراستي الجامعية، ابن عمي شاب مُتقد الذكاء يكبرني بالعمر وهو الابن البكر لعمي الأكبر، متعلم حاصل على شهادة بكالوريوس في الإدارة والاقتصاد، حرفي من الدرجة الأولى صائغ ذهب، فنان في عمليات الخراطة والحدادة والنقش وغيرها، كان يمارس نشاطاته السياسية والنقابية وتشترك معه زوجته، لذا كانا من ضمن استهدافات السلطة، إلا أنهما قد شعرا بخطورة الوضع عليهما فما كان منهما إلا أن هربا من العراق وتغربا في كثير من البلدان العربية والأوروبية، حتى استقرا في الولايات المتحدة الأمريكية بشكلٍ نهائي.

أكملنا ملء نماذج الاستخبارات كما في كل مرة، إذ تعودت عليها حيث كانوا يرسلوها إليّ كل ثلاثة أشهر طيلة فترة خدمتي في الجيش، أدعي في كل مرة أن لا علاقة ولا اتصال لي بهما منذ مغادرتهما العراق ولغاية آنذاك، وأن سبب مغاردتهما كان لأغراض علاجية، أنهيت مهمتي بعد تحدثنا قليلاً عن أحوالنا العائلية والعامة، تذكرنا حادثة طريفة حصلت معي في سنة دراستي الأولى في موسكو عام ١٩٧٣، حين دخلت مع زملائي إلى مطعم صغير راغبًا في تناول وجبة الغداء، جاءت النادلة وكانت شابة شقراء فائقة الجمال كحورية هبطت توًا من السماء ذات وجه مستدير بعيون زرقاء وشعر طويل منسدل تراءى لي كحلوى (شعر البنات) التي كنا نأكلها في صِغرنا، ترتدي قميص أبيض شفاف تُظهر من خلاله بوضح مفاتن صدرها الأبيض العارم الطري وتنورة قصيرة جدًا تبرز أسفلها سيقان ملفوفة رائعة اللون والتقاسيم، نظرت إليها فهاجت

حواسي جميعها مرة واحدة، توقف إدراك عقلي، مُسك لساني عن الحركة وأخذ قلبي يدق بعنف شوق ولهفة، أمامي تخيلتها عارية تمامًا كما خلقها الله، رأيت جميع ثناياها الدافئة الناعمة وانحناءاتها الغائرة فزادت شهوتي بها، كدت أنهض وأحتضنها لكن بعد لحظات تمالكت نفسي وشَرَعتُ في طلب الطعام، قلت لها بصوت واضح الارتباك:

– أود أن تجلبي لي (توفلي).

عندها اندهشت النادلة، توسعت عيونها كثيرًا وسألتني باستغراب شديد:

– ماذاااااا؟

فأخبرتها مرة أخرى وبثقة أكثر (أريد توفلي) فما كان منها إلا أن أطلقت ضحكة مُجلجلة اهتزت لها جدران المطعم وغرقت هي في دموعها، ضحكتها المُدوية أثارت انتباه جميع الحاضرين، لا لسبب غير شكلها الملائكي وضحكتها العذبة، شاركناها في الضحك المُحبب دون إرادة مِنا وكيف لا نضحك معها وهي على صورة ملاك أبيض صالح مصنوع من عسل سماوي صافي، بعد أن أمسكت نفسها قالت لي:

– هل تقصد تفتيلي (وتعني كُفتة لحم)؟

أجبتها بنعم والخجل والضحك والشهوة قد أخذا مني مأخذ، ولكنه كان مأخذ حلو وعذب حينها سألتها:

– ولكن ما سبب ضحكتك الملائكية هذه يا جميلة؟

أجابتني والابتسامة لم تفارق شفتيها اللماعتين الشهيتين:

– لأن كلمة توفلي تعني حذاء.

وأشارت إلى حذائها مع إصدارها إشارة اعتذار واضحة.

في جميع الأحوال إن كان ما طلبت كان كُفتة أم حذاء فلقد ضحكت وزملائي مِلء أشداقنا، على إثرها ازدادت شهيتنا للأكل، التهمنا هذا التفتيلي (الكفتة) الملعون وأجهزنا عليه دون رحمة.

ضحكنا أنا وزميلي (خ.ر) على ذكر هذه الحادثة مما خفف عني بعض من هَم وقلق الاستدعاء، عدت إلى غرفة نومي وأقصد مكتبي وأنا في مزاج عكر رغم ذكرى قهقة النادلة حورية جنان الخلد الجميلة ومحاولة زميلي تخفيف الأمر عليّ، لم أحصل على أية إجابة حول استقالتي ولذا كتبت استقالة ثالثة وأرسلتها إلى قيادة القوة الجوية ومنها إلى إدراة الضباط وبقيت أنتظر.

القصص الحزينة في وطني كثيرة، لم تمر فترة طويلة حتى تمَّ استدعائي مرة جديدة إلى محكمة الثورة، يبدو أن القدر قد جمعني مع هذا المكان الرهيب ولا يريد أن تنتهي قصته معي، امتزجت في نفسي أحاسيس من كبت عميق وصراع حاد وشعور بالظلم، الحمد لله أن الأمور في المرة السابقة قد سارت على خير وسلام ولكن كيف ستسير هذه المرة لا أعلم... الله هو الحاكم الرحيم.

كفراشة تحوطها ألسنة لهب بقيت ساهدًا طول الليل لم أستطع النوم وأنا في ثورة التفكير والقلق، أدور بين غرف بيتي أذرعُها انظر إلى أشيائي أوزنها عسى أن تبقى في ذاكرتي إن حصل لي سوء وأرسلوا رقبتي إلى الجلاد، الأفكار الرهيبة في ما سيحصل غدًا لا تبارحني ولا أبارحها، كيف سأواجه رئيس محكمة الثورة؟ كيف سيكون شكل قائدي وهو خلف القضبان؟ كيف ستكون شهادة الآخرين؟ كيف وكيف وكيف وكلها تجعلني عاجز أكثر عن الإجابة.

صباح يوم المحكمة نهضت مبكرًا حيث أني لم أنم أصلاً، توجهت متعبًا منهكًا نحو الحمام، وقفت تحت الدوش فتحت الصنبور وبدأ الماء كرشاش غزير يسقط على رأسي يغوص في خصلات شعري، قطراته تنساب على جسمي أتحسسها أتلذذُ بسريانها عليه وهي تتجه نحو الأرض أسمع صوت اصطدامها، الماءُ

الحي يغسل النفس ويزيل عنها الوهن، الأدران والإجهاد، ارفع رأسي إلى الأعلى يسقط الماء على وجهي فيبعث الحيوية في نفسي بعد فتور الليل، وهنا أغمضُ عينيّ ودون وَعي أرفع يديّ إلى صدري أتجه نحو جهة الشمال الجغرافي وأردد دعاء كريم من كتابنا المقدس (الكِنزا رَبّا – الكنز العظيم)

بِسم الحيّ العظيم
أسّبحُكَ رَبّي بقلبٍ طاهر
أيُّها الحيُّ العظيم
المُتميِّزُ عن عوالمِ النورُّ
الغنيُّ عن كلِّ شيء
العَليُّ فوقَ كلِّ شَيء
نسأَلُكَ الشِّفاءَ والظَّفَر
وهدايةَ الجَنان
وهدايةَ السَّمع واللِّسان
ونسأَلُكَ الرَّحمةَ والغُفران
آمين
يا رَّبنا... يا ربَّ العالمين
والحيُّ مُزكى

أنتهي من تلاوتها لأشعر فورًا أن جبل كبير قد أزيح عن كاهلي، ترتاحُ نفسي يصفى فكري، تهدأ سريرتي وأسترد طاقتي، هذه الصلوات تُساعدني حقًا في تجاوز الضيق والألم والتشبث بالحياة والأمل، لقد منحتني صلواتي القوة والعزم والقدرة على المواصلة والنجاة، لا يساورني شك بأن قدرتي على الصمود أصبحت أكبر بكثير.

ما أن تقترب سيارتي من مكان مديرية الأمن العامة حتى يتراءى لي أهل القائد وكأنهم مجموعة نخيل زرعت قرب بوابة المديرية لسنين طوال ونُسيت،

ينتظرون قَدر ومصير ابنهم المظلوم، أتحدث معهم قليلاً أواسيهم وأواسي نفسي ثم يودعوني بالتمنيات النابعة من صميم أفئدتهم المكلومة عسى أن أخرج مصطحبًا ابنهم، لا أود أن أكرر سَرد نفس أحداث دخولي إلى محكمة الثورة، وأبدأ فقط من لحظات الانتظار في الغرفة المُجاورة للمحكمة.

الضباط يجلسون في الغرفة يرتعشون خوفًا ويتصببون عرقًا، أعينهم شاخصة تتكلم مع بعضها دون حروف أو صوت، يجلس أمامنا النقيب الشاب اللبق مُبتسم يمارس عمله برشاقة وخفة وكأنه في دائرة رعاية المُسنين وليس في مديرية إرهاب البشر... الحزن والقلق يعُم المكان والسكون يسيطر على الكون والعقول، قلبي يُسرع من دقاته ويدفع الإدرنالين في دمي بقوة، الوضع لا يترك للمرء خيار كبير للتفكير والتبصر في سير القضية، أحاول لملمة نفسي رغم إيماني المطلق بحصانتي وبراءتي إذ لا يمكن للمرء الاعتماد كليًا على ذلك ويجب الاجتهاد في سبيل الوصول إلى الحياة.

فجأة ودون إنذار نزل صوت النقيب كصاعقة على رأسي أحدث زلزال في نفسي حين قال لقد وصل المتهم وستبدأ المحاكمة قريبًا، كلماته أصابت الجميع نوبة خوف هستيرية وأخذت عيونهم تتراقص قلقًا، دقائق ككوابيس تمر رهيبة وثقيلة جدًا، لحظات وستلتحم المبادئ الخيرة مع الشريرة منها في معركة فاصلة، إذًا إن المحاكمة ستبدأ قريبًا وسنرى من الذي سيفوز أخيرًا.

كيف سيبدو شكل القائد؟ هل تغير كثيرًا؟ هل خف وزن جسمه المربوع؟ هل تمَّ الاعتداء عليه وتعذيبه؟ هل تمَّ الحكم عليه قبل أن تبدأ المحاكمة فتكون بذلك صُورية وكما يجري غالبًا في بلدنا؟ أسئلة عديدة تدور في رأسي ولا أجوبة لها، ثم تبدأ نفسي تطرح عليّ أسئلة عديدة والتي تدور حول شهادتي ومصيري وقدري الذي ينتظرني كأنها تحاول تهيأتي لما سيجري.

تبدأ المحاكمة ويتم استدعاء أول ضابط، كفهد يقفز على فريسته ينهض برشاقة يتجه نحو الباب الآخر يطرقه ويتخطى بابه، بعده يتم غلق الباب يدخل في

الفارغ وينقطع شريط الفيلم، لا أحد يعلم ماذا يجري خلف الأبواب المُغلقة، لدي تصور كيفية إجراء المحاكمات المدنية من خلال الأفلام العربية التي نشاهدها على شاشات التلفاز، ولكن ليس لديَّ أية فكرة عما يجري حاليًا في داخل أروقة محكمة الثورة.

بعد حوالي أكثر من عشرين دقيقة يخرج الضابط لكي يتم المناداة على ضابط آخر، وهذا الآخر يغوص في محيط المحكمة دون أي تفاصيل، أجلس والخوف والقلق يركباني لا أكاد أسيطر على حواسي إذ أن كل منها أخذ يعمل على انفراد دون سيطرة مركزية من دماغي، تذكرت دعائي صباحًا وأكيد سوف لن يخذلني الرب، نعم أنا واثق من ذلك ولكن من يستطيع أن يوقف رعشة رُكبتاي، أحاول أن أنظم دفاعي وكلامي لجميع الاحتمالات والأسئلة الممكنة التي سيحاولون أن يحرجوني بها، لابد أنهم قد علموا بعلاقتي بالقائد من خلال محاضر الاستخبارات الظالمة، ولذا يمكن أنهم قد تهيأوا للإيقاع بي أيضًا، ولكن ما هي هذه الأسئلة لا أعرف يا إلهي ارحمني وامنحني القوة كي أستطيع أن أقف على رجليّ كي لا تخذلاني أمام حُكام الثورة وجلاديها وأسقطُ مغشيًا عليّ.

ما أن نطق النقيب الوسيم باسمي حتى شعرت أن دمي قد نزل كلهُ من رأسي إلى قدميَّ التي ثقلت ولم أستطع تحريكهما، كالكهرباء سرت رعشة قوية في جسمي أيقظت جميع حواسي وجعلتها في وضع استعداد قصوي، لا أعلم كيف نهضت ولكنني نهضت سرت عدة خطوات طرقت الباب وتخطيت عتبتها، أغلقت الباب خلفي، في محكمة الثورة وقفت مذهولاً بالكامل، أشاروا لي أن أقف في المكان المُحدد للشهود فوقفت، تطلعت إلى ما حولي فوجدت القائد يقبع في قفص خشبي يبلغ ارتفاعه حوالي متر ونصف، من خلاله أمكنني رؤية القائد يقف منتصب بعناد ولكن بدت لي وكأن الحياة قد فارقت وجهه، نحل وجهه خف وزنه، لابد أنه قد تعرض في السجن إلى حِمية إجبارية وبان عليه

الوهن، عيونه كرقاص الساعة تتحرك يمينًا وشمالاً بسرعة تحاول احتواء جميع ما يوجد ويحصل في هذه القاعة المشؤومة، كنت اقرأ القلق الداخلي الذي يعتريه، ولكنه يحاول جهده أن يظهر بمظهر القوي المقدام.

قاعة المحكمة لم تكن كبيرة كما تصورتها إذ كان كل شيء فيها متواضع وكانت على شكل مستطيل قد يبلغ طوله عشرون مترًا وعرضها ستة أو سبعة أمتار على الأكثر، على جانبها الأيسر تقع منصة الحاكم ومساعديه، إلى شمالهم يجلس مُمثل الادعاء العام، وإلى الجهة المقابلة له أقف أنا، أما على الجهة المقابلة لمنصة الحكام فينتصب قفص الاتهام المستطيل الشكل الذي يتكون من قضبان عمودية عديدة وهذا يطابق ما نراه في المحاكم المدنية...

الحاكم يأمرني أن أقسم على الكتاب الكريم ويقصد القرآن على أن أشهد بالحق، فورًا أجيبه أني لست مُسلمًا بل أنا صابئي الديانة وسأقسم بالله وبكتابي، أرفع يدي اليمنى إلى الأعلى باسط إياها تجاهه وأقول – أقسم بكتابي المقدس الكنزا ربا أن أقول الحق وليس سواه – تعود يدي من تِلقاء نفسها دون إرادتي إلى وضعها الطبيعي وترتجف رغمًا عني, ركبتايَّ ترتجفان ولا تقويان على حملي، قلبي تتسارع دقاته بقوة ومعها أنفاسي ويكاد يقفز من الرعب، اضطراب هادر يسري في بدني وعقلي إذ نسيت كل شيء وكأني أمام الرب في امتحان يوم الدينونة ونهاية الكون، وقفت مدهوشًا مصلوبًا مصدومًا من شدة المفاجأة والخوف، لكن يدور في رأسي تصور قاطع أن الأشرار يحتاجون إلى حجج قوية وأساليب أقوى كي يستطيعون القضاء عليّ.

الحاكم يطرح عليّ سؤاله الأول ويقول:

– هل سمعت ما قاله المُتهم بشير من أقوال حول أموال التصنيع العسكري في الأيام الأولى للحرب العدوانية على بلدنا؟

– كلا سيدي لم أسمع.

– كيف لم تسمع؟

يبدو أن إجاباتي ستنتهي لكن أسألتهم لن تتوقف:

– لم أكن موجود في موقع الحدث سيدي.

القائد بشير يُبادر من تلقاء نفسه ويقول موجهًا كلامه لي:

– ولكنك كنت موجود وأنا لم أقل هذا الكلام فيما يخص أموال التصنيع العسكري.

يقاطعه الحاكم فورًا ويقول له أمر:

– لا تحاول تلقين الشاهد.

تبدو أن كلماتي والخطوة الأولى من شهادتي لم ترق للقائد في بادئ الأمر ولكنني كنت مُضطرًا لاتخاذ هذا الموقف الذي لم يكن القائد يعلم بأسراره، لكنني استدركتُ الأمر قبل فواته وقلت للحاكم:

– سيدي لقد كُنا بالفعل سويًا ولكننا سرعان ما تفرقنا، إذ توجهت نحو جناحي كي أخلي المعدات الصالحة بعد القصف إلى خارج المعمل، ولذا لم أكن في وقت الحدث ولم أسمع القائد يقول مثل هذا الكلام لأنني بالأساس لم أكن متواجد، ولكن لدي كلمة أود قولها سيدي.

– تفضل قُل ما لديك...

كنت أشعر أنّ ملائكة تحرسني وتحرص على نجاتي، وهنا وجدت نفسي بحال من العزم والشجاعة، نسيت رجفان ساقاي ودقات قلبي وأطلقت العنان للساني فقلت:

– سيدي لقد عملت مع العميد بشير لسنين طوال وأعرفه جيدًا، إنه ضابط مقتدر وقائد مقدام ومهندس كفؤ، إنه الضابط الوحيد الذي وقف ضد قرار تسقيط وإزالة معملنا من الوجود حين قررت قيادة القوة الجوية اعتباره غير قابل للإصلاح بسبب عدم توفر الجدوى الاقتصادية، لكنه أصرّ على إعادة إعماره ولقد تحقق ذلك وأصبح المعمل يُنتج كما كان.

– شكرًا وتستطيع الانصراف.

– شكرًا سيدي.

أنظر إلى القائد الذي بدا غير مقتنعًا بما أدليت من شهادة والحق معه، إذ أنه لم يكن يعلم ما حصل معي وما يحصل خارج أسوار سجن الحوتة الذي يقبع به، وبعد هذه السنين الطويلة أرى أن ما فعلتهُ كان ينم عن فهم عميق ومعرفة حقيقية سير القضية إذ أني حاولت إنقاذ نفسي دون التأثير على موقف القائد مع محاولاتي الجدية وغير المباشرة لمساعدته قدر الإمكان.

رغم هلعي الكبير خرجت من قاعة محكمة الثورة فرحًا لعدة أسباب أولها إني رأيت القائد وهو سالم يستطيع الوقوف على أرجله، وثانيها أني قد خرجت سالمًا ولا أزال بصفتي كشاهد وليس كمتهم، إذ أن الخروج من محكمة الثورة بحد ذاته يُعتبر مُعجزة، وثالثها أني قد أدليت بشهادة مهمة قد تُفيد القائد إذا ما شهد الآخرون بمثلها.

ما أن انتهت شهادة أخر شاهد في القضية المصيرية؛ وبعد أن سَرى الوقت الثقيل في ظِل خوف كبير قلق قاتل والجميع في انتظار المعجزة حتى تمَّ الإعلان وإبلاغنا أنه قد تمَّ اتخاذ الحكم النهائي في براءة القائد من التُهمة الخطيرة الموجهة له، وأنه بذلك قد أصبح حُرًا طليقًا ما لم يكن مُتهمًا بقضايا أخرى.

لما كان القائد قد أُتهِمَ بقضايا أخرى فإنه سيبقى في السجن وعلى ذمة التحقيق لتلك القضايا الإدارية الكيدية الأخرى، وبهذا انسدل الستار على أخطر قضية كان يمكن أن تؤدي بحياة القائد وقد تسحبني معه في زيارة قسرية إلى سعير جهنم، وتساءلت في نفسي هل سحق الوطنيين والمخلصين من هذا الشعب يخدمُ الوطن والنظام أم على العكس؟ تنفستُ وتنفس أهل القائد ومعظم الشهود الصعداء، وحمدنا الله على هذه النتيجة، وشعرت ببعض الراحة، وهدأت روحي بعض الشيء في انتظار نتائج محاكم أخرى.

عدتُ إلى بيتي وزوجتي وأطفالي بخبر براءة القائد، والذي كان يعني عدم تعرضي مستقبلاً إلى أي تساؤلات إضافية، مما أراح حالة زوجتي النفسية وأزال عن كاهلها القلق والخوف نسبيًا، نمنا ليلتنا تلك براحة دون قلق أو توجس.

رغم حصول القائد على براءة واضحة من تُهمة التطاول على سياسة الدولة العليا، فإن الأمر واستمرار التحقيق وتواصل الضغط من احتمال الوقوع تحت قسوة الأحكام العسكرية الأخرى التي يمكن أن تصدرها المحاكم لاحقًا لم ينتهِ، إلا أنّ الأمر أصبح أكثر استقرار وأقل خوف على حياة القائد وعلى احتمالية توريطي معه، لقد كان وقت عصيب على عائلة وذوي القائد، وكذلك عليّ وعائلتي دون باقي الشهود، إذ أني كنت أيضًا في موضع الهدف والرماية لمن وضع خطة القضاء علينا أنا والقائد سويًا.

الله هو وحده من يُحدد عمر الإنسان ويقرر وقت وفاته حين يكتبهما على جبينه في لحظة ولادته، وأن حياة البشر رغم رخصها في بلدان مثل العراق إلا أنها بالأخير ليست بيد الجلادين، إنّ محاولة الشياطين لإنهاء حياة القائد وحياتي قد باءت بالفشل، وذهبت أحلامهم الطائفية المريضة إلى مزبلة التاريخ الذي سيظل يلاحقهم حتى يوم الدين.

ينتهي هذا الفصل المأساوي من حياتي دون أن أعلم شيء عن مصير استقالتي.